الفصل الثاني

أثر الانتفاضة الفلسطينية في الآخر (الإسرائيلي)
دراسة تحليلية في رواية (أشلاء) للأديبة الإسرائيلية
أورلى كاستل بلوم

obeikandi.com

obeikandl.com

تمهيد:

يسمى "سيجموند فرويد" أكبر علماء التحليل النفسي، النفس البشرية بشخصيتها وذاتها بالأنا. . والأنا هي الذات"[(١)]، "والذات هي كل ما تشتمل عليه هذه الذات من خصائص وسمات نفسية عقلية أو مزاجية، ودفاعية، من أفكار وطموحات، وصراعات، أو توترات، وحاجات فيزيولوجية، وحاجات نفسية، كالحاجة للحب، والانتماء أو الأمن، وتحقيق الذات، وغيرها من الحاجات والدوافع"[(٢)].

ومن هنا يتضح أن صورة "الأنا" أو "الذات" عبارة عن منظومة سيكولوجية اجتماعية تتحدد بطبيعة تطورية خاصة، حيث أن صورة الذات هي نسق تصوري تطوره الكائنات البشرية، أفراداً كانت أم جماعات وتتبناه وتنسبه إلى نفسها. ويتكون هذا النسق التصوري من مجموعة من الخصائص الفيزيقية والنفسية والاجتماعية، ومن عناصر ثقافية كالقيم والأهداف والقدرات التي يعتقد الأفراد أو تعتقد الجماعة أنها تتم بها[(٣)].

أما إذا حاولنا تحديد مصطلح "الآخر"، فعلينا أن ندرك أولاً أن هناك ثمة تلازم بين مفهوم "صورة الذات" ومفهوم "صورة الآخر" واستخدام أي منها يستدعى ـ تلقائيا ـ حضور الآخر. ويبدو أن هذا التلازم على المستوى المفاهيمى هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم وفقًا لها تشكل كل منها؛ فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة "الآخر" لدينا، كما أن كل صورة للآخر تعكس ـ بمعنى ما ـ صورة "الذات"، وهذا التلازم بين الصورتين قد أبرزته أعمال العلماء النفسيين والاجتماعيين الذين اهتموا بالقضايا المتصلة بالذات وبالآخر. . . حيث طور جيمس مارك بالدوين **J.M.Baldwin** بعد ذلك رؤية تفاعلية اهتم فيها بعلاقة الذات بالآخر ـ حيث شدد على أن "الأنا والآخر". . مولودان معًا[(٤)].

---

(١) د. عبد المنعم بدر، أحمد الصباحي عوض الله: تفسير الأحلام: الديني والعلمي، كتاب الشعب، ١٩٦٩ (ص٣٩).
(٢) د. شاكر عبد الحميد: الذات والآخر في عملية الإبداع، مجلة سطور، ديسمبر ١٩٩٦، (ص٦٣).
(٣) نفس المرجع، (ص٩٣).
(٤) د. فتحي أبو العينين: صورة الذات و صورة الآخر في الخطاب الروائي، مجلة القاهرة، العدد ١٣١ أكتوبر ١٩٩٣، (ص٩٢). .

وهكذا، لا يمكن أن يكون هناك "ذات" دون "الآخر" فكلاهما مرآه للآخر. بيد أن "الآخر" قد يكون هو "الذات"، أي أن كل ما ينصب من تعريفات للأنا من شأنه أن ينسب للآخر أيضًا حين تأخذ "الأنا" محل "الآخر".

ويقول "جان فاروّ" في بحث له بعنوان (الآخر من حيث هو اختراع تاريخي): "ثمة نزعة إلى طرح التساوي (الإنسان = وعى) على أنه تساو بديهي. . والحال أن من يسلم بالوعي يسلم بإدراك الذات من حيث هي فرد، فيسلم إذن باكتشاف "الآخر". ذلك أنه إذا ما وجدت "أنا" (ضمير المتكلم)، فأنه توجد بالضرورة "أنا" أخرى عديدة؛ التي هي "أنت" (ضمير المخاطب). بيد أن هذا التساوي، مهما يبدوا لنا طبيعيًا، ليس من دون شك إلا اختراعا حضاريًا حديث العهد"[1].

ولكننا إذا حاولنا أن نستقصى ما هو الفارق بالتحديد بين "الأنا" و"الآخر"؟ نستطيع أن نقول، أن الثنائية التقليدية التي تفصل وتعارض بين "الأنا" و"الآخر" هي ثنائية تبسيطية، ذلك أن كل تعريف ذاتى للأنا يتضمن بالضرورة تعريفًا ـ ظاهرًا أو مضمرًا ـ للآخر، والعكس أيضًا صحيح. غير أنه من الممكن أن يكون رفض حضور الآخر، بل وحتى كبته في التعاريف الذاتية للأنا مصدرًا لصورة الآخر الأكثر تعكرًا وسلبية. هذه الظاهرة قائمة بالتأكيد في مناطق الحدود والتماس بين المجموعات والمجتمعات والثقافات والحضارات ... ومن حالات ذلك حالة العلاقات بين البلاد العربية والغرب"[2].

إن "الأنا" تتجلى وجودها في مرايا غيرها الذي يستدعى إبداعها سلبًا وإيجابًا في آن. والنقيض يستدعى نقيضه في هذا السياق، بالقدر الذي يذكر الشبيه بشبيهه في العلاقة التي لا تدنى بطرفيها إلى حال من الاتحاد، فتبرز المخالفة في المشابهة والمشابهة في المخالفة، كما تبرز النقائض نقائضها في حركة الوعي الذي لا يكف عن المقارنة في عمليات الاستدعاء والاسترجاع التي تقضى إلى قياس النظير على النظير النقيض، والنتيجة هي الحركة المتوترة للعين التي لا ترى "الآخر" إلا من منظور ما تسترجعه من "الأنا"، ولا تسترجع الأنا إلا في ضوء ما أدركته في "الآخر" وذلك في سياق الفعل الحواري المتوتر من معرفته بالآخر التي تغدو معرفة بالأنا، والعكس صحيح بالقدر نفسه[3].

---

(١) جون فارو: الآخر من حيث هو اختراع تاريخي، ندوة (صورة الآخر)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، الحمامات / تونس، ١٩٩٣، (ص١١٢).

(٢) تقديم لـ "صورة الآخر"، ملخصات الأوراق المقدمة في الندوة العالمية التي انعقدت بالحمامات (تونس) في الفترة (٢٩ : ٣١) مارس ١٩٩٣، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، (صVI-VII).

(٣) د. جابر عصفور: فنون الآخر وآدابه، مجلة العربي، العدد ٤٧٣، أبريل ١٩٩٨م، (ص٧٨، ٨٠).

ولعل هذا ما يجعلنا نقول أن "الآخر" عبارة عن مقوّم جوهري من مقومات "الذات"، من حيث أنها لا تكون كذلك إلا من خلال "الآخر" ولا نتعرف على ذاتها إلا عبر ذلك "الآخر". بمعنى أنني لكي أكون موجودا بوصفي أنا، يجب ـ فيما يقول هيبوليت مؤكداً الكلمة التالية مباشرة ـ أن أجد " **Trouve** آخر "[١].

ومن هنا يمكن القول، أن صورة الآخر عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ـ أو جماعة ما ـ إلى الآخرين[٢].

وفي معرض هذا، يقول الدكتور شاكر عبد الحميد: " إن الآخر قد يكون أحد الأفراد وقد يكون جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم. فالآخر قد يكون قريبًا وقد يكون بعيداً. وقد يكون صديقًا وقد يكون عدواً. وقد يكون عدواً نفكر في أنسب الوسائل للتعامل معه[٣].

وإذا كان "الآخر" قد يخضع للتشويه، أحيانا، من قبل "الأنا" أو العكس، فإن هذا التشويه، يختلف في زمن السلم عنه في زمن الحرب. أما التركيز على ديناميات صورة الآخر طوال الخلافات فيمكن أن يساهم في صياغة فهم حسن للتفاعل القائم بين السياسة والثقافة في الأنماط العاملة للهويات الجماعية[٤].

وبالتالي فإن "الآخر" عندما يكون عدواً، فإنه يصبح دائمًا قوة من قوى الظلام والسديم الخ . . .[٥]. ويدرك "الآخر" بطريقة كونية شبه مطلقة على أنه خطر كامن ومهدد، وقد يصبح على وجه الاحتمال جذاباً، على الرغم من اختلافه، أو بالأحرى بسبب هذا الاختلاف نفسه[٦].

وتقول "أنا أندينكوفا" في بحث لها حول صورة "الآخر" من خلال الثقافة السياسية: "إن صورة "الآخر" ليست سمة ثابتة من سمات الثقافة السياسية، بل هي تخضع لعدة تأثيرات ومن الممكن أن تتغير تغيراً سريعًا في حيز زمني قصير"[٧].

---

(١) د. محمود رجب: فلسفة المرآة، دار المعارف، ١٩٩٤، (ص٢٠٣).
(٢) د. فتحي أبو العينين: صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي، مرجع سابق، (ص٩٣).
(٣) د. شاكر عبد الحميد: الذات والآخر في عملية الإبداع، مرجع سابق، (ص ٦٣).
(٤) آبدات ر. أكلاياف: ديناميات صورة الآخر في النزاعات السياسية، ندوة (صورة الآخر) مرجع سابق (ص٦).
(٥) أسماء العريق: الآخر أو الجانب الملعون، صورة الآخر، مرجع سابق، (ص٩٨).
(٦) دانيال بارتو: صورة الآخر وصورة الذات، ندوة (صورة الآخر)، مرجع سابق، (ص١٢).
(٧) أنا أندنيكوفا: صورة الآخرين كخلفية لتصور الذات، ندوة (صورة الآخر)، مرجع سابق، (ص٨)

وفي كل مرة نضع تصوراً للآخر نحتاج إلى تحديد، ولو ضمني، لما هو غير الآخر. . إن "الآخر" يستدل عنه عبر مستويات مختلفة هي الجنس أو الطبقة أو الموقع في السلطة العامة (حاكم / محكوم) أو المنطقة، الخ. وهى مستويات كثيرا ما تتشابك. . كما أننا لسنا دائمًا إزاء آخر نفسه، بل هناك جملة من المعطيات تمنح للآخر زخما ومضمونًا ليس هو عينه إن كان قريبا أو بعيداً في الزمان والمكان وما يرافقهما من تغيرات، غير أنه لا وجود للآخر إلا بوجود من يصوغه بصفته مهزومًا أو منتصراً. وخارج هذه المعادلة يندثر "الآخر" إلى العدم ويصير بلا مدلول [1].

وبالتالي فالآخر يكون ثنائية نفى أو نزاع مع "الأنا"، تختلف باختلاف تطور هذه الثنائية. "فالآخر من خلال وحدات القبيلة والأمة ـ ومروراً باللغة ـ هو من وجهة نموذجية مثالية طرف نفى أو نزاع" [2].

من هنا يمكننا القول، بأن الآخر(الإسرائيلي) يمثل طرف صراع مع الذات الفلسطينية؛ أو أن الآخر (الفلسطيني) يمثل طرف نزاع مع الذات الإسرائيلية؛ وتتخذ مناحي الصراع بينهما حالات من السطوع والخفوت يمكننا أن نمثلها بمنحنى رسم بياني طبقًا لأحداث وظروف الصراع بينهما منذ الإرهاصات الأولى للصراع العربي الإسرائيلي قبل قيام دولة إسرائيل، وحتى وقتنا هذا.

لقد اكتشف المهاجرون الصهاينة حال قدومهم إلى أرض فلسطين، أن هذه الأرض التي جاءوا إليها، هي أرض مأهولة بالسكان العرب الفلسطينيين، وأنها ليست كما زعمت الصهيونية (أرض بلا شعب)، الأمر الذي جعل هؤلاء المهاجرين يتعرضون منذ البداية لحالة من الصراع مع كل من الأرض بطبيعتها القاسية حينًا، ومع الإنسان العربي الفلسطيني الذي فطن لوجود من يتربص به حينًا آخر.

وقد أخذت حالة الصدام مع العربي الفلسطيني، اتجاهات عديدة فرضتها الظروف والأحداث التي وقعت على مدى القرن العشرين بين كل من اليهود والعرب، حيث حاول كل طرف من أطراف الصراع أن يثبت حقه في الوجود على هذه الأرض، وأن يدافع عن استمرارية هذا الوجود بعدة وسائل على المستوى الثقافي والسياسي، ومستويات أخرى.

ويمكننا القول، أن المهاجر اليهودي الصهيوني قد ادعى لنفسه حقوقًا تاريخية على هذه الأرض، محل النزاع تارة، وحقوقًا دينية تارة أخرى. ومن هنا أصبح الفلسطيني في نظر (الآخر) الصهيوني، ثم بعد ذلك (الآخر) الإسرائيلي، هو بمثابة الوجه الثاني الذي يمكن

(١) دلال البذرى: الآخر أو المفارقة الضرورية، ندوة (صورة الآخر)، مرجع سابق، (ص١٧).
(٢) الطاهر لبيب: الآخر العربي بين الفرد والجمع، ندوة (صورة الآخر)، مرجع سابق، (ص ١٣٨).

أن يرى من خلاله مدى صحته أو بطلان ادعاءاته. بمعنى أن المهاجرين الصهاينة نظروا للصراع مع الفلسطينيين على أنه رهان على نجاح الأيديولوجية الصهيونية في تحقيق أحلامها وآمالها على أرض فلسطين، بادعاء الحق الديني تارة، والحق التاريخي تارة أخرى. من هنا أخذ الصراع مع (الآخر) ـ سواء أكان فلسطينيًا أم إسرائيليًا ـ اتجاهات عديدة انصبت جميعها في آلية إدارة الصراع على كافة المستويات الإدراكية والمعرفية.

وبطبيعة الحال، انعكس ذلك الوضع أو الصراع في بعض الأعمال الأدبية لبعض الأدباء الإسرائيليين، الذين شعروا بأن وجودهم على هذه الأرض يتناقض مع جذرية الوجود العربي الفلسطيني، واختلفت معالجتهم للصراع باختلاف الظروف والأحداث بين الطرفين.

ويمكننا القول، بأن معالجة الصراع مع "الآخر" (الإسرائيلي)، على هذا النحو، قد سار في عدة اتجاهات عبر مسار تطور الأدب العبري الإسرائيلي، اختلفت في فتراتها الزمنية على ضوء الحروب التي خاضتها إسرائيل، والتي كانت بمثابة فواصل زمنية قاطعة في مراحل هذا الأدب وفي تاريخ هذه الدولة؛ إلا أن الانتفاضة الفلسطينية ـ الأولى أو الثانية ـ كانت أشد فتكًا من هذه الحروب، لاسيما وقد تحولت إلى شبح يطارد "الآخر" (الإسرائيلي)، في كل مكان دون أن يعرف وجهته أو زمانه أو مكانه أو ماذا سيفعل به.

انتفاضة الأقصى في الرواية العبرية المعاصرة (رواية (أشلاء) أنموذجًا):

لم تكن زيارة شارون لساحة المسجد الأقصى في الثامن والعشرين من سبتمبر عام ٢٠٠٠، هي وحدها التي أشعلت لهيب انتفاضة الأقصى، بل ثمة تراكمات نفسية وحالة من اليأس والإحباط تغلغلت في نفوس الفلسطينيين من جراء المماطلات الإسرائيلية في تنفيذ اتفاقيات أوسلو وغيرها، علاوة علي الممارسات الوحشية لجيش الاحتلال الإسرائيلي تجاه الشعب الفلسطيني.

إن خيبة الأمل والانكسار وضياع الحقوق، كل هذا كان كافيا لانطلاق شرارة الانتفاضة الفلسطينية التي كان لها أثرها الكبير في النفسية اليهودية الإسرائيلية علي كل المستويات الاجتماعية والنفسية والسياسية.

ولأن الأدب، كما يقولون، مرآة للمجتمع، يعكس ما يعتمل في النفس البشرية من مشاعر وأحاسيس، ويرصد التغيرات الاجتماعية والبشرية، فهكذا كان الأدب العبري المعاصر راصداً لهذه الظاهرة الفلسطينية الفريدة في مناهضة الاحتلال ومقاومته.

ولم تكن الأديبة الإسرائيلية "أورلى كاستل بلوم[1]" (١٩٦٠) في منأى عما يحيط بها وبمجتمعها من هلع ورعب وفزع، راح يعيشه الإسرائيليون منذ بدء انتفاضة الأقصى، فكتبت روايتها "أشلاء" (٢٠٠٢) لتعبر، كما تقول، عن فزع أم تحاول الحفاظ علي حياة أبناءها، فحولت بيتها إلى ساحة من التدريبات، أخذت تعلم فيها أبناءها كيف ينبطحون أرضًا في حالة حدوث انفجار، وكيف لا يرتادون الأماكن المزدحمة. فأصبحت دور السينما والمطاعم وأماكن الترفيه أماكن محظورة، من يذهب إليها فهو أشبه بمن يغامر بحياته..

وقد انعكست كل هذه المشاعر في روايتها "أشلاء" التي بينت لنا الأثر العظيم للانتفاضة الفلسطينية في كل المناحي الحياتية للإسرائيليين علي المستوى النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

وفي حقيقة الأمر، لم تكن "بلوم" وحدها هي التي دلت بدلوها في موضوع الانتفاضة وانعكاساتها في الأدب الإسرائيلي المعاصر بكافة أنواعه، بل تبعها في ذلك الكثير من الأدباء الإسرائيليين. وهو أمر وصفه بعض النقاد الإسرائيليين بالانهزامية والتنصل من المسئولية، لاسيما وقد بين هؤلاء الأدباء الأثر الكبير لهذه الانتفاضة في كل المناحي الحياتية للإسرائيليين على المستوى السياسي والنفسي والاجتماعي والاقتصادي.

فقد وصف الناقد الإسرائيلي "يوسف أورن" الأدب الإسرائيلي في سنوات الانتفاضة بالانهزامية والهروب من المواجهة، فيقول في كتابه "الأدب القصصي الإسرائيلي في سنوات الانتفاضة": "لقد سيطرت روح من الانهزامية والتنصل من المسئولية على الأدب الإسرائيلي في سنوات الانتفاضة... فلا يوجد عمل واحد من بين مئات الأعمال الأدبية حاول بعقل وبشجاعة أن يسبح ضد التيار، ويكشف للجمهور الإسرائيلي عن المصادر والأهداف الحقيقية للانتفاضة... فقد انشغل الأدباء الإسرائيليون في وصف أحداثها وعملياتها خلال تلك السنوات من خلال تزييف للحقيقة وتجاهل للحقائق التاريخية التي تقول، إن الفلسطينيين لا يرغبون في وجودنا على الإطلاق، وانحصر موقف هؤلاء الأدباء

(١) أورلى كاستل بلوم: ولدت الأديبة الإسرائيلية أورلى كاستل بلوم بتل أبيب عام ١٩٦٠، ودرست السينما بجامعة تل أبيب، وتعد من أشهر الكتاب الإسرائيليين الذين دلو بدلوهم في الأدب العبري الإسرائيلي، وتركزت كتاباتهم في ردود فعل الشارع الإسرائيلي تجاه الأحداث الداخلية والخارجية. حصلت بلوم على جائزة تل أبيب عام ١٩٩٠ عن روايتها (أين أنا)، وحصلت على جائزة (نيومان) عام٢٠٠٣. من أهم أعمالها: (قريب من قلب المدينة)١٩٨٧ـ(بيئة معادية)١٩٨٩ـ(مدينة دوللى)١٩٩٢ـ(أين أنا)ـ١٩٩٠ (قصص غير مرغوب فيها)١٩٩٣ـ(المونـاليزا) ١٩٩٥ـ(راديكاليون أحرار) ٢٠٠٠ـ(أشلاء) ٢٠٠٢ـ(نسيج) ٢٠٠٦.

في أن السلام بأيدينا فقط عند العودة إلى حدود ١٩٦٧ "[١] .

وتعليقًا على واقع الانتفاضة في الأدب العبري، واستلهام الأدب الإسرائيلي للعمليات الاستشهادية التي يقوم بها الفلسطينيون، يقول الناقد الإسرائيلي " يورام ملتسر " :

" قد يتساءل القارئ من سبق من؟ ومن أخذ من الآخر؟ المؤلف أم الواقع؟ "[٢] في إشارة إلى حالة المجتمع الإسرائيلي إبان انتفاضة الأقصى، كما عكسها الأدب الإسرائيلي في كثير من الأعمال مثل رواية (بعثة مسئول الموارد الإنسانية) لـ أ. ب. يهوشواع، وقصة (مرجع) ٢٠٠٣ لجلعاد عفرون، و(أربعة منازل وحنين) " (٢٠٠٤) لإشكول نفو.

وقد وقع اختيارنا على هذه الرواية، محل الدراسة لعدة أسباب:

١- تعد رواية " أشلاء " هي أول رواية عبرية كتبت خلال فترة انتفاضة الأقصى، حيث تعكس أحداث الانتفاضة في صورة أخبار عاجلة.

٢- تعبر الكاتبة في هذه الرواية عن ردود الأفعال التي اجتاحت المجتمع الإسرائيلي إبان فترة الانتفاضة، لاسيما وأن الكاتب هنا امرأة، تعبر عن فزع أم تحاول الحفاظ على حياة أبنائها، وتبحث في مجتمعها عن الأمن والراحة والحرية.

٣- هي أول رواية تجتمع فيها مجمل آثار الانتفاضة الفلسطينية على المجتمع الإسرائيلي؛ وعلى كل المستويات النفسية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. حيث تقول الكاتبة: " لقد كتبت هذه الرواية من بين الأحداث والعمليات والرعب. كتبتها للأجيال القادمة، وكلى أمل ألا نكون الجيل الأخير. . . "[٣] .

٤- تعكس هذه الرواية أسئلة أخلاقية ملحة تجتاح المجتمع الإسرائيلي، وتسلط الضوء على الجانب المظلم في هذا المجتمع، وهو الأمر الذي جعل بعض النقاد الإسرائيليين يصفون هذه الرواية بأنها تحتوى على جانبي القوة والضعف معًا من حيث النص الروائي.

---

(١) נא לעיין: יוסף אורן، הסיפורת הישראלית בשנות האינתפאדה، הוצאת יחד، ישראל، ٢٠٠٥ (עמ'١١-١٠) أنظر: وسيف أورن (الأدب القصصي الإسرائيلي في سنوات الانتفاضة، دار نشر ياحد، إسرائيل، ٢٠٠٥، ص١٠-١١)

(٢) יורם מלצר: המציאות היא עובדה בשטח، עיתון מעריב، ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٣- يورام ملتسر: (الواقع حقيقة ملموسة)، صحيفة معاريف ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٣.

(٣) נרי ליבנה: האינתפאדה הפרטית שלי، עיתון הארץ، ٣/ ٤/ ٢٠٠٢- نيرى ليفناه: انتفاضتي الخاصة، صحيفة هاآرتس، ٣/ ٤/ ٢٠٠٢.

٥- تنتقد هذه الرواية السياسة الإسرائيلية فيما يتعلق بالفشل في التوصل إلى اتفاق حقيقي حول الوضع النهائي، في الوقت الذي تتزايد فيه توسيع عمليات الاستيطان على حساب الأراضي الفلسطينية، وهو ما أضفى حالة من الصراع الدائم والقلق الوجودي، أدت إلى استدعاء دور الصهيونية في هذا الصراع ووضعها في قفص الاتهام.

ورغم أهمية هذه الرواية كتأريخ لبعض أحداث انتفاضة الأقصى، إلا أنها تفتقد للحبكة الروائية التي تشد القارئ وتجذبه، فهي أشبه بقطع "البازل" (لغز الصور)، الذي ينبغي على القارئ تكوينها حتى يستطيع حل لغز الصور الذي يكمن في صورة المجتمع الإسرائيلي القابع في دوامة الحروب والعنف، وكأن "كاستل بلوم" تشرك القارئ في محاولات حل لغز الصراع العربي الإسرائيلي.

قصة الرواية (عرض مختصر):

تبدأ أحداث الرواية بوصف لشتاء قارس وغير عادى يجتاح البلاد في إسرائيل، وفي خضم هذا، تتزايد العمليات الاستشهادية التي يقوم بها الفلسطينيون، ويتأثر بها المجتمع الإسرائيلي، حيث تنسج لنا "كاستل بلوم" شخصيات روائية في حالة من الرعب والفزع والارتباك إلى حد اليأس من جراء تلك العمليات.

لقد أصاب اليأس "ايريس فنتورا"؛ إحدى شخصيات الرواية، وهى تبحث عن الأمن والأمان في تلك الدولة التي أحاطها الموت من كل جانب، ولكنها لم تجدهما سوى في تسمية أبناءها "أوشر" و"عوز" و"حيروت"، وهى كلمات عبرية تعنى "السعادة" و"الملاذ" و"الحرية"، أما "أدير برجسون" فهو بطل آخر يرفض إنجاب الأبناء في عالم مثل هذا، ويصف إسرائيل بأنها مقبرة كبيرة تقبع فيها مستوطنات عديدة، فكل يوم قتلى جدد، وجنازات وعمليات استشهادية وحوادث إطلاق نار، وأحزمة ناسفة، دون أن يكون هناك حل.

وتتساءل "قطي بيت هالحمى"، عن مصير أبناءها الأربعة بعد مقتل أبيهم في إحدى العمليات الاستشهادية، وتطرح أسئلة أخلاقية ملحة حول مستقبلهم، لاسيما وأنهم ينتمون لأسرة فقيرة؛ تأثرت كثيراً من جراء المخصصات المالية الجسيمة التي اقتطعتها الحكومة الإسرائيلية من بعض الوزارات لصالح القطاع الأمني في إسرائيل.

لقد نسجت شخصيات الرواية، تقريبًا دون حبكة روائية، وكأن كاستل بلوم تعطى لنا نماذج مجتمعية تعبر من خلالها عن وضع معوج لا مناص منه، فجاء أبطال الرواية وهم

قابعون في القلق الوجودي؛ وقلقون بشأن حياتهم الأمنية المرتبكة؛ وبشأن تطلعاتهم المتواضعة التي تتجاهلها الحكومة الإسرائيلية، حيث تسخر الأدبية من رئيس دولة إسرائيل "رؤفين تاقوع"، فمنذ أن انتخب رئيسًا للدولة وهو يتجول بين جنازة وأخرى لقتلى الانتفاضة، ويتنقل من مستشفى إلى آخر لزيارة الجرحى، وكأن دوره ينحصر في حضور الجنازات وزيارة جرحى الانتفاضة من الإسرائيليين. وانتقل هذا العبث الأمني والسياسي إلى القادة العسكريين وهم يشكون حتى فيمن يعبث بحقيبته. هذا الوضع المعوج للمجتمع الإسرائيلي جعل بعض الإسرائيليين يصفون دولتهم، في هذه الرواية، بأنها (دولة قذرة).

من هنا، جاءت هذه الرواية كتجسيد لواقع إسرائيلي حقيقي ومظلم خلّفته انتفاضة الأقصى، وتعاملت معه الكاتبة بصورة مباشرة، "فباستثناء الشخصية الخيالية لرئيس الدولة، فإن الواقع الإسرائيلي في هذه الرواية حقيقي ومقلق ويكتنفه الغموض"[1]، لاسيما وقد اتخذ هذا سجالاً ما بين فعل (الذات) ورد فعل (الآخر).

إن هذه الدائرة من الفعل الإسرائيلي (المتمثل في الاحتلال والقمع والحصار الذي تمارسه الحكومة الإسرائيلية يوميًا ضد الفلسطينيين) ورد الفعل الفلسطيني (المتمثل في مقاومة الاحتلال عبر العمليات الاستشهادية داخل العمق الإسرائيلي)، أدت إلى حدوث العديد من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل المجتمع الإسرائيلي.

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نعرض هنا لأبرز نقاط تأثير انتفاضة الأقصى على الآخر (الإسرائيلي) من خلال المحاور التالية:

أولاً: المحور النفسي:

كان الاضطراب النفسي لدى المواطن الإسرائيلي نتيجة طبيعية للإحساس بعدم الأمن، فقد جاء في جريدة هآرتس (٦/ ١٠/ ٢٠٠١) أن عدد المرتادين على عيادات الأطباء قد زاد بشكل كبير في الآونة الأخيرة رغم أنهم ليسوا مرضى من الناحية العضوية، وإنما يعانون من ضغوط وتوتر على خلفية الأحداث الأخيرة (أي الانتفاضة). وقد نشرت جريدة معاريف (٢/ ٤/ ٢٠٠٢) أن وزارة الصحة الإسرائيلية فتحت مراكز استعلامات هاتفية يستطيع المواطنون عبرها تلقي مساعدات نفسية. كما بيَّنت يديعوت أحرونوت (١٤/ ٢/ ٢٠٠٢) أن شركات الأدوية أفادت بأن هناك ارتفاعًا بنسبة ٥٠٪ في استهلاك المهدئات والمسكنات.

---

(1) אריאנה מלמד: המציאות היא עובדה בשטח، עיתון ידיעות אחרונות، 2002/ 3/ 29ـ آرياناه ميلاميد: (الوقع حقيقة ملموسة)، صحيفة يديعوت احرونوت، 2002/ 3/ 29.

ومن أطرف المؤشرات على حالة الذعر التي انتابت المجتمع الإسرائيلي إبان أحداث انتفاضة الأقصى، أنه مع تصاعد وتيرة الانتفاضة بدأت حالة الذعر تنتاب الكلاب والقطط في المنازل الإسرائيلية، ولذا اقتضى الأمر تقديم المهدئات لها. وقال أطباء بيطريون إن الكلاب تبدأ في النباح وتصبح أكثر عدوانية وترتجف لا إراديًا أو تفقد التحكم في مثانتها عندما تصل أصداء دوي إطلاق النار في الضفة الغربية إلى مباني القدس.

وقد انعكس هذا الواقع النفسي في هذه الرواية، محل الدراسة، حيث تبدأ أحداث الرواية بوصف لفصل شتاء غير عادى يجتاح البلاد، حيث المطر والرياح والثلوج، وهى مقدمة تسوقها الكاتبة لتربط بينها وبين الواقع النفسي الذي يعيشه الإسرائيليون منذ اندلاع انتفاضة الأقصى؛ الأمر الذي وصفه النقاد الإسرائيليون بامتزاج الواقع بالخيال، حيث "تصف هذه الرواية الواقع الإسرائيلي بكل دقة. ففي الوقت الذي يشهد فيه المجتمع الإسرائيلي العمليات الفلسطينية ضد الإسرائيليين بصفة يومية، فإنه يعيش شتاء قارسًا وقاسيًا... هكذا يمتزج الواقع بالخيال على الرغم من أن هذه الرواية تحتوى على تفاصيل حقيقية مستمدة من الواقع الإسرائيلي"[1].

ويطالعنا القاص في بداية الرواية بصورة حقيقية من المجتمع الإسرائيلي الذي غرق في سلسلة من العمليات الاستشهادية التي يقوم بها الناشطون الفلسطينيون بتفجير أنفسهم حيث يقول:

"ارتمى الناشطون الفلسطينيون في أحضان الموت، في الأتوبيسات ومحطات القطار وفي مداخل التجمعات التجارية، وفي قاعات المرح... ففي كمائن نصبت على جانبي الطرق بالضفة الغربية وقطاع غزة، كان القناصة في الانتظار، يقذفون بحجارتهم في اتجاه السيارات المارة؛ ويقتلون من بها. أما في الشوارع الرئيسة بالمدن الكبرى فقد تطايرت السيارات المفخخة في الهواء، وخلّفت وراءها الموت والدمار"[2].

وهكذا، يطالعنا القاص بواقع حقيقي عاشه المجتمع الإسرائيلي خلال انتفاضة الأقصى، ذلك الواقع الذي خلّف وراءه قصص الرعب والبؤس والاكتئاب على ألسنة الإسرائيليين ممن ظلوا على قيد الحياة:

"ازدادت الموضوعات والقصص الإنسانية التي تمزق القلوب في تلك الأيام، وانتشرت قصص الرعب حول فقد أسر بأكملها ذهبت لتناول الطعام خارج المنزل... وحول

---

(1) أنظر: www.shats.com/kastelbloom.htm

(2) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים, רומן, הוצאת כנרת, ישראל, ٢٠٠٢، (עמ'١٣-١٢)- أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، دار نشر كنيرت، إسرائيل، ٢٠٠٢، (ص١٢-١٣).

الخوف العظيم الذي دب في قلوب من يعيش على تلك البقعة من الأرض "[١].

وإمعانًا في تصوير تلك الصورة السيئة التي عاشها الآخر (الإسرائيلي) خلال فترة الانتفاضة، جاءت السمات النفسية لليهودي الإسرائيلي، في هذه الرواية، على هذا النحو:

"مكتئب، وبائس، وصامت، ومكبوت، ومنغلق على نفسه، ومذهول وحزين، ومعقد، وفظ للغاية"[٢].

وتشير الدراسات الإنسانية في إسرائيل إلى "أن تصاعد عدد القتلى والجرحى الإسرائيليين، جعلت غالبية الإسرائيليين يشعرون بالرعب وانعدام الأمن، ووصل الأمر إلى أن الكثيرين منهم دأب التردد على العيادات النفسية بصورة متزايدة، حيث خلصت الدراسات الإسرائيلية إلى أنه في عام ٢٠٠١ بلغ مجموع المترددين على العيادات النفسية ٩٩ ألف إسرائيلي بزيادة قدرها ١٠ آلاف عن عام ٢٠٠٠ حسبما أفادت جمعية (عيران) الإسرائيلية. ويعد الأفراد القاطنين بالقرب من المواقع التي تحدث فيها العمليات الاستشهادية؛ من أكثر الإسرائيليين المترددين على العيادات النفسية"[٣].

وربما تذكرنا هذه السمات النفسية لمعظم أبطال الرواية؛ بصورة اليهودي الجيتوى (اليهودي في فترة الشتات) التي أسبغها الأدب العبري الحديث على الشخصية اليهودية في فترة الشتات؛ في محاولة لخلق ذلك النمط اليهودي الجديد الذي يتناسب مع مرحلة الاستيطان على أرض فلسطين، ورفع وقتها شعار (آخر يهودي وأول عبري).

وهى سمات ظلت عالقة بالآخر اليهودي، على مدار سنوات عديدة، وسأمها الرواد الصهيونيون؛ وحاولوا طمسها لخلق شخصية يهودية جديدة تتناسب مع مرحلة الاستيطان الصهيوني على أرض فلسطين. هذه السمات تجعلنا نلاحظ أن النفس اليهودية تستعيد صفات تضرب بجذورها في الأعماق؛ وتطفو على سطح الحياة عند معايشة الخطر، وهو أمر يعود إلى الحركة الصهيونية ومحاولاتها الدائمة لتشكيل الوعي الوجداني لدى الآخر(اليهودي) منذ نعومة أظافره، وما أن يشب عن الطوق حتى يعود ليتساءل عن هويته وعن نفسه وعن ماهية القيم التي غرزت فيه. وهنا يعيش اليهودي حالة من الانعدام في الوزن والهوية والوجهة والهدف، لتبقى الصهيونية، دومًا، سببًا رئيسيًا فيما يعتمل النفس اليهودية من مشاعر وأحاسيس متناقضة تظهر فقط في مواجهة الأخطار.

---

(1) שם، (עמ'١٤-١٣)- نفس المرجع (ص١٣-١٤).

(2)אורלי קסטל-בלום: חלקים אנושיים، רומן، שם، (עמ'14)- نفس المرجع (ص13).

(3) נא לעיין: עיתון הארץ، ٥/ ٢/ ٢٠٠٢- أنظر صحيفة هآرتس ٥/ ٢/ ٢٠٠٢.

وهو أمر تؤكد عليه الكاتبة الإسرائيلية "مانويلا دافيرى"، بقولها: "كانت نبوءة دولتنا مركز فخر وملجأ آمنا لكل يهود العالم، أما الآن فقد غدت خطيرة لمواطنيها، ومهددة من جيرانها، ومقامرة على مستقبلها. لقد سيطر الجمود والعجز والإحباط على كل شئ، وهبت أعاصير عاتية ومهددة، على وشك أن تجرفنا في طريقها. لقد أصبحنا ندور جميعًا في حلقة مفرغة لا نهاية لها"(١).

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا الوضع الذي خلّفته الانتفاضة على نفسية الأطفال الإسرائيليين، حيث عادوا ليذّكرون آباءهم بالكابوس الوجودي للآخر (العربي) الذي ظهر بقوة بعد حرب ١٩٦٧:

"الآن، يستيقظ أبناؤنا كل ليلة، ويأتون إلينا في الفراش، فمع كل هزة يشعرون بأن الفلسطينيين سيطلقون علينا النار. لقد صارت الحياة كابوسًا"(٢).

هذا الوضع النفسي والمأسوى جعل "أدير برجسون" يرفض إنجاب الأطفال في عالم ملئ بالمخاطر:

"إنني لا أرغب في إنجاب أطفالاً إلى هذا العالم. هل تدركين ذلك؟ إنه أمر خطير"(٣).

وهكذا، بدا هذا الواقع النفسي المؤلم الذي عاشه الآخر (الإسرائيلي) إبان فترة الانتفاضة؛ التي حولت حياته كابوسًا وجعلته قلقًا بشأن أبناءه، حتى قبل أن ينجبهم؛ لأنهم قد يدفعون ثمن ذلك الصراع المزمن بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وهو أمر تستمده الكاتبة ـ "كاستل بلوم" ـ من الواقع الفعلي الذي عاشه الإسرائيليون ومارسوه مع أبناءهم، فقد كانوا يعلمونهم كيف يواجهون الانتفاضة، وكيف يتصرفون حال حدوث إحدى العمليات، فهي تقول: "لقد درّبت أبني كيف يفر هاربًا وقت حدوث انفجار... وقلت له: تصور أنني ناشط وأخذت وضع الاستعداد لإطلاق النار عليك، فماذا تفعل، فأجاب: أنبطح أرضًا على الفور. وهكذا قلت لأبنائي إذا رأيتم ناشطًا يفجر نفسه أو سيارة مفخخة فلتقرأون: شمع يسرائيل"(٤).

ويذكر، أن الوضع النفسي لكثير من الشباب الإسرائيليين قد تأثر بصورة ملحوظة إبان

---

(1) أنظر: עיתון מעריב، ١٥/ ٩/ ٢٠٠٣ـ أنظر صحيفة معاريف، ١٥/ ٩/ ٢٠٠٣.

(2) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים، שם، (עמ'٢٠٢)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، (ص٢٠٢).

(3) שם، (עמ'١٨٩)ـ نفس المرجع (ص١٨٩).

(4) נרי ליבנה: האינתפאדה הפרטית שלי، שם ـ نيرى ليفناه: انتفاضتي الخاصة، مرجع سابق.

فترة انتفاضة الأقصى، فطبقًا لتقارير أوردتها بعض الصحف الإسرائيلية، فقد شعر بعض الشباب الإسرائيلي بنوع من الكبت من فرط خوف الآباء عليهم وحذرهم الشديد. وانعكس هذا بصورة ملحوظة في أحداث الرواية، فها هي، "فنتورا"، إحدى شخصيات الرواية، تسمى أبناءها (عوز) و(أوشر) و(حيروت) وهى كلمات عبرية تعنى (الملاذ) و(السعادة) و(الحرية):

"انتظروا هنا أيها الأبناء، عوز، وأوشر، وحيروت، سأعود على الفور"[1].

وهكذا، يبحث الآخر (الإسرائيلي) عن "الملاذ" الذي يحميه من عمليات الانتفاضة، وعن "السعادة" التي يفتقدها على هذه الأرض، التي من المفترض أنها حدوده الآمنة كما وعدته الصهيونية، ويبحث كذلك عن "الحرية"، حرية التنقل والحركة والتنزه دون خوف أو قلق. وهى أمور حرم منها بفعل الهوس الأمني والخوف على الأرواح، بيد أن (فوبيا) الملامح العربية بدت تتسلل إلى نفوس الكثيرين من الإسرائيليين، لا سيما وقد دب الفزع والرعب في نفوسهم إلى حد الخوف ممن يتميز بملامح شرقية:

"تستقل ايريس فنتورا أتوبيسًا في طريق عودتها إلى المنزل، وتشتبه في رجل ذي ملامح شرقية يجلس بجوارها ويحمل حقيبة كبيرة، فتظن أنها متفجرات، فتنسحب في هدوء وتصل إلى السائق، وتبلغه، فيأخذ منحنى الطريق جانبًا، ثم يصرخ في الركاب بأن فرامل الأتوبيس لا تعمل ويفتح الأبواب، فيهرع الركاب إلى النزول وينزل الرجل ذو الملامح الشرقية ويبتعد الجميع عنه في حالة من الذهول والرعب، ثم يصرخ السائق في الرجل ويطرحه أرضًا، ويمسك به بعض الركاب، وتأتى الشرطة الإسرائيلية وتغلق المنطقة، وتقوم بتفتيش الرجل؛ ثم يتضح أنه إسرائيلي ذو ملامح شرقية، مثل كثير من الإسرائيليين، طردته زوجته من البيت فأخذ ملابسه ووضعها في تلك الحقيبة الكبيرة التي أثارت شكوك وفزع الركاب"[2].

هذا المشهد الساخر الذي أتت به "بلوم" في روايتها هذه، يبين لنا مدى الفزع والهلع الذي أصاب جموع الإسرائيليين إبان أحداث الانتفاضة وازدياد وتيرة العمليات الاستشهادية، وهو نتيجة طبيعية للهوس الأمني وحالة الاستنفار في الأجهزة الأمنية والجيش الإسرائيلي الذي أهاب بالمواطنين بعدم التراخي والإبلاغ عن أية حالة يرتابون فيها:

---

(1) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים, שם, (עמ'١٣٧)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، (ص١٣٧).

(2)שם, (עמ'١٣٠)ـ نفس المرجع (ص١٣٠).

"كانت صفارات الإنذار حول العمليات الفلسطينية في كافة أنحاء البلاد أمراً عاديًا، فقد قامت أجهزة الأمن بتحذير المواطنين من التقاعس والإهمال، وأهابت بهم أن يكونوا يقظين لأية حركة تثير الريبة من قبل سيارة أو رجل أو امرأة"[1].

وامتد هذا الفزع النفسي –كما تشير كاستل بلوم في روايتها– إلى وسائل الإعلام التي أذاعت أغاني وطنية لتشجيع المواطنين على الصبر والتماسك والثقة في بلدهم، مثل أغنية "ليس لي بلاد أخرى" للمطرب كوريان آلال، وكذلك أغاني ألفت خصيصًا لمواجهة انتفاضة الأقصى، مثل "من عليه الدور ومن في الدور القادم؟"[2] للمطرب "يهودا بوليكر" في إشارة إلى ازدياد عدد القتلى الإسرائيليين من جراء العمليات الاستشهادية التي يقوم بها النشطاء الفلسطينيون، حيث تشير التقارير الرسمية إلى أن "عدد القتلى الإسرائيليين إبان العامين الأولين من انتفاضة الأقصى قد بلغ ٦٤٤ قتيلاً، فيما بلغ عدد الإصابات إلى ٤١٣٧ جريحًا، في حين أسفرت العمليات الاستشهادية خلال الثلاثة شهور الأخيرة من عام ٢٠٠٢ عن ٣٧ قتيلاً و٨٧٣ جريحًا إسرائيليًا"[3].

وهكذا، كان للانتفاضة الفلسطينية دور كبير في زعزعة الاستقرار النفسي للآخر (الإسرائيلي) داخل المجتمع الإسرائيلي، وبات الإسرائيليون في حالة بحث دائم عن الأمن المفقود والاستقرار النفسي، عبرت عنه الكاتبة من خلال بعض شخصيات الرواية التي نسجت حبكتها من واقع إسرائيلي حقيقي، وهو الواقع النفسي الذي قد لا يعبأ به السياسيون الإسرائيليون في إدارة دفة الصراع مع الفلسطينيين.

وتعلق الناقدة الإسرائيلية ايلانة ميلاميد على هذا الواقع بقولها: "لقد صورت هذه الرواية، بواقعية شديدة، خطوطًا عريضة لعالمنا، وبدا أمامنا عالم (النحن)، فنحن مكتئبون، ومنعزلون، وجائرون، ومستهترون، ومذهولون، ويائسون، ومنغلقون على أنفسنا. إننا حين نتحدث ننطق بما هو خطأ. لقد غرقت البلاد في كل أنواع المخلفات"[4].

ومن الأهمية بمكان، أن نشير هنا إلى أن هذه الرواية لم تشر إلى ردود الأفعال الإسرائيلية تجاه العمليات الاستشهادية التي يقوم بها الفلسطينيون، من قتل وسفك دماء

---

(1) אורלי קסטל-בלום: חלקים אנושיים, שם, (עמ'236)- نفس المرجع (ص236).
(2) שם, (עמ'٢٦٠)- نفس المرجع (ص٢٦٠).
(3) إسماعيل عبد اللطيف الأشعر، مؤمن محمد بسيسو: حصاد الانتفاضة، مركز الإعلام العربي، القاهرة ومركز النور للبحوث والدراسات، غزة، ٢٠٠٣، (ص١١).
(4) אריאנה מלמד: המציאות היא עובדה בשטח, עיתון ידיעות אחרונות, 2002/ 3/ 29- آرياناه ميلاميد: (الوقع حقيقة ملموسة)، صحيفة يديعوت احرونوت، ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٢.

للنساء والأطفال والشيوخ وتدمير وغلق للمناطق الفلسطينية المحتلة بعد كل عملية، فقد ركزت فقط على الجانب الإسرائيلي وصارت على نهج الإعلام الإسرائيلي في الإشارة إلى النشطاء الفلسطينيين بكلمة מחבל "مخبل" التي تعنى (مخّرب) في اللغة العربية، وإلى العمليات الاستشهادية بكلمة פיגוע "بيجوع" التي تعنى (عملية تخريبية) في اللغة العربية أيضًا، وهى معان أو دلائل يكمن فيها ظلم وغبن للفلسطينيين الذين يدافعون عن أرضهم وحقوقهم المغتصبة، وتشير إلى المكنون النفسي تجاه الآخر (الفلسطيني) بالنسبة للآخر (الإسرائيلي) حتى لو كان أديبًا مرهف الحواس، من المفترض أن يكون منصفًا في رصده لظواهر اجتماعية أو سياسية، لاسيما وأن أحداث الرواية مستمدة من الواقع الحقيقي لأحداث الانتفاضة وتداعيتها.

هكذا، لم تفعل "بلوم" ما فعله آخرون من المفكرين والأدباء الإسرائيليين. "لقد أصبح العديد منهم يتفهمون لجوء الفلسطينيين إلى العمليات الاستشهادية، كما هو الحال مع الأديبة الشهيرة باتيا جور، التي أكدت أنها تتفهم أن يلجأ الفلسطينيون المحرومون من القدرات التقنية العسكرية التي تتمتع بها إسرائيل إلى العمليات الاستشهادية لكي يحسنوا من أدائهم في المواجهة. حتى رئيس الوزراء الإسرائيلي باراك بعد تسريحه من الجيش عام ١٩٩٤، قال (لو ولدت فلسطينيًا لاخترت الانضمام إلى منظمات المقاومة). وصور الفداء الفلسطيني جعلت حاييم جوري أشهر الشعراء في إسرائيل يتذكر كلمات رئيس وزراء إسرائيل الأول دافيد بن جوريون أمام مركز حزب مباي في عام ١٩٣٥ عندما اعتبر أن ثورة الشيخ عز الدين القسام كانت أكبر مظهر أخلاقي يجلب الاحترام للعرب في ذلك الوقت، بسبب اعتمادها على التضحية بالنفس كمنطلق لتحديد الأهداف"[(١)].

وربما يذكرنا هذا الموقف للأديبة الإسرائيلية كاستل بلوم بطبيعة الأدب العبري المجند الذي حمل الفكرة الصهيونية على أكتافه وروج لها وعبر بها إلى حيز الوجود قبل قيام دولة إسرائيل، كذلك كانت "بلوم" في موقف الترويج لفكرة تشويه الآخر (الفلسطيني) في الأدب العبري الإسرائيلي ووضعه في مرتبة المخربين والإرهابيين الذين يقومون بترويع الآمنين وزعزعة استقرار المجتمع الإسرائيلي، وكأن ما تفعله قوات الاحتلال الإسرائيلية في المناطق المحتلة ضد الفلسطينيين، من قتل وتصفية جسدية وغلق للمناطق وهدم للمنازل الفلسطينية، بعيداً تمامًا عن التخريب والإرهاب.

(1) أنظر: http://www.naamy.net/index.php

ثانيًا: المحور الاجتماعي والاقتصادي:

جاء في كتاب "الحرب السابعة" لآفي سيخاروف، مراسل الشئون الفلسطينية والعربية للإذاعة الإسرائيلية باللغة العبرية، وعاموس هارئيل المراسل العسكري لصحيفة هآرتس الإسرائيلية؛ "أن انتقال الفلسطينيين لتنفيذ العمليات الاستشهادية كان ضرورة يمليها واقع ميزان القوى بين الجانبين. فالاختلال الهائل في موازين القوى العسكرية بين الفلسطينيين ودولة إسرائيل، دفع حركات المقاومة الفلسطينية إلى الاعتماد على العمليات الاستشهادية، حيث أصبح الاستشهاديون قنابل بشرية للرد على فعل طائرات الاف ١٦ ودبابات الميركفاة. وكانت العمليات الاستشهادية هي الفعل المقاوم الفلسطيني الأبرز الذي ترك أثاره على المجتمع الإسرائيلي. فالعمليات الاستشهادية حصدت أرواح معظم الإسرائيليين الذين قتلوا أثناء الانتفاضة. لقد طالت العمليات الاستشهادية تقريبًا كل المرافق التي يتوجه إليها الإسرائيلي العادي، فقد تم تفجير حافلات النقل والمطاعم والملاهي والفنادق. ويؤكد المؤلفان أن الاستشهاديين ومرسليهم نجحوا في بث الذعر والإحباط الجماعي داخل طبقات كثيرة في المجتمع الإسرائيلي. وكان للعمليات الاستشهادية الدور الأساسي في تغيير أنماط حياة الجمهور الإسرائيلي. فقد قلل الإسرائيليون من الخروج لمرافق الترفيه والتسوق"[1].

وكان من الطبيعي مع تصاعد وتيرة انتفاضة الأقصى وازدياد العمليات الفلسطينية ضد المنشآت والأتوبيسات داخل إسرائيل، أن تستنفر أجهزة الأمن الإسرائيلية ومعها الجيش لمواجهة هذا الخطر الداهم الذي روع المجتمع وبث الذعر في نفوس ساكنيه. وهو الاستنفار الذي كلّف الحكومة الإسرائيلية الكثير من الجهد والمال، وهو ما أثر بالسلب على الوضع الاجتماعي لكثير من الأسر الفقيرة داخل إسرائيل، فقد أرهقت الانتفاضة الفلسطينية الميزانية العامة للدولة، من جراء المخصصات الجسيمة التي اقتطعتها الحكومة الإسرائيلية من بعض الوزارات لصالح القطاع الأمني.

إن طبيعة إسرائيل كدولة تعيش على دعم يهود الشتات، يحتم عليها أن تعول على الكثير من مصادرها لضمان عيش اليهود المهاجرين إليها بمستوى راق، ولجذب يهود العالم للمجيء إليها. فمنذ أن خططت الحركة الصهيونية لإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، أدركت أنه مع توالي الأيام والسنين، فإن حماس اليهود للانتقال من البلدان التي نشئوا فيها إلى هذه الدولة سيفتر، إذا ما وضع هؤلاء اليهود في حساباتهم أوضاعهم الاقتصادية والمعيشية، وهو المعيار الذي سيدفع هذا اليهودي أو ذاك، للهجرة إلى إسرائيل.

---

(1) أنظر: http://www.naamy.net/index.php

من هنا تكمن أهمية ترغيب يهود الشتات وإغراءهم بكثير من المغريات الاقتصادية لتشجيعهم على الهجرة، فعلى سبيل المثال، تحدد إسرائيل مخصصات الضمان الاجتماعي للطفل الأول والطفل الثاني، وهناك مخصصات للأسر كثيرة الأولاد، ومخصصات كبيرة نسبيا للعاطلين عن العمل وذوي الحاجات الخاصة والفقراء، إلى غير ذلك من المخصصات الاجتماعية.

وحتى نعرف حجم الأنفاق الحكومي في إسرائيل على مخصصات الضمان الاجتماعي، فإنه من الأهمية أن نذكر أن موازنة الضمان الاجتماعي التي تشرف عليها وزارة التضامن الاجتماعي تعد أكبر من موازنة الأمن، "ففي حين أن موازنة الأمن للعام ٢٠٠٣ كانت ثلاثين مليار شيكل فإن موازنة الضمان الاجتماعي بلغت ٤٥ مليار شيكل"[(١)] لكن في موازنة العام ٢٠٠٤، فإن إسرائيل، نظرا لمتطلبات مواجهة انتفاضة الأقصى، أمنيا، قامت بتقليص موازنة الضمان الاجتماعي بخمسة مليارات شيكل، وعملت على تقليص المخصصات التي تقدمها لـ "مواطني" الدولة، الأمر الذي أدى إلى تضرر الطبقات الضعيفة، التي تشكل معظم السكان فيما يعرف بـ "مدن التطوير"، الواقعة في أطراف الدولة الشمالية والجنوبية، والتي معظم سكانها من الطبقات الفقيرة الذين ينتمون إلى أصول شرقية، أو أنهم مهاجرون جدد من روسيا[(٢)]. وبالتالي، كانت انتفاضة الأقصى سببًا مباشراً في تأثر الكثير من الأسر الإسرائيلية الفقيرة بهذا الوضع، فازداد فقرهم وزادت معاناتهم، في الوقت الذي وضعت فيه الدولة أولوية الأمن فوق كل اعتبار.

وقد أظهرت "كاستل بلوم" في روايتها، محل الدراسة، كيف التهم الوضع الأمني الموارد الاجتماعية للدولة، فانتشر الفقر وزاد عدد الإسرائيليين الذين يعيشون تحت خط الفقر في ظل الانتفاضة الفلسطينية المستمرة، ونشر التقرير السنوي لمعدل الفقر في إسرائيل في شتى وسائل الإعلام وأظهر أعداداً ضخمة من الأسر التي تعيش تحت خط الفقر، "إنها أسر تعيش بالكاد"[(٣)]، كما أن السياحة قد تأثرت بصورة ملحوظة، "حيث توقفت الرحلات الجوية إلى إسرائيل، وأصبحت الطائرات شبه فارغة"[(٤)].

هذه الحقائق استمدتها الأديبة من الواقع الفعلي لأحداث الانتفاضة، وتداعيتها على

---

(1) עיתון ידיעות אחרונות ٢٣ـ١١ـ٢٠٠٣ ـ صحيفة يديعوت احرونوت، ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٣.

(2) שם ـ نفس المرجع

(3) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים, שם، (עמ'١٥)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، (ص١٥).

(4) שם، (עמ'١٦٧)ـ نفس المرجع (ص١٦٧)..

معدل النمو الاقتصادي والاجتماعي داخل إسرائيل، "فطبقًا لتقارير رسمية، ارتفع عدد الإسرائيليين الذين يعيشون تحت خط الفقر، بعد شهور قليلة من اندلاع انتفاضة الأقصى إلى ١,٥ مليون فرد في عام ٢٠٠١، مقارنة بحوالي ١,١٦ مليون فرد عام ٢٠٠٠. كما ارتفعت معدلات البطالة في الربع الثالث من عام ٢٠٠١ إلى ٩,٣٪، في الوقت الذي بلغ فيه معدل النمو الاقتصادي في عام ٢٠٠٠ حوالي ٦٪، وعليه فإن معدل النمو الاقتصادي لن يتجاوز عام ٢٠٠١ حاجز ٢,٥٪"[١].

وتمضى أحداث الرواية لتؤكد على هذه التقارير الرسمية في رصد حقيقي لتأثر الآخر (الإسرائيلي) بانتفاضة الأقصى على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، فجاء على لسان القاص في الرواية:

"أفاضت نشرات الأخبار، لأول مرة، في تحليل التقرير السنوي لحالة الفقر في إسرائيل، حيث وصف الوضع بأنه جد خطير وصعب، وكشف عن أعداد كبيرة للغاية من الأسر التي تعيش من تحت خط الفقر"[٢].

ويرجع القاص حالة الفقر إلى الوضع الأمني الذي التهم الموارد الاجتماعية للدولة، وإلى الحكومة التي لم تبذل جهداً لتعويض المتضررين:

"التهم الوضع الأمني تلك الموارد التي كانت مخصصة لكثير من الأسر، التي تضررت من تلك الأعمال العدائية. . . وافتقدت لكثير من حاجاتها الأساسية مثل: المعاطف الثقيلة، والبطاطين، والقفازات، وأحذية المطر، والمظال، والقبعات الصوفية. وهى أشياء ضرورية لمواجهة تلك الظروف الجديدة التي فرضتها حالة الجو"[٣].

ولعل تركيز "كاستل بلوم" على الوصف الدقيق لحالة الجو، جاء ليشير إلى حالة المجتمع الإسرائيلي في ظل أحداث انتفاضة الأقصى التي وصفها المحللون الإسرائيليون بأنها رهان الشعب الفلسطيني على الصمود والتحرر من نير الاحتلال والقمع، لاسيما وأن "بلوم" بدأت روايتها بوصف لشتاء قارس ورياح عاتية لم تشهدها إسرائيل من قبل، في إشارة إلى انتفاضة الأقصى التي أسقطت الكثير من أوراق التوت عن سياسة العدوان والغبن والقهر التي تنتجها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني على أرضه.

---

(1) עיתון הארץ، ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠١ـصحيفة معاريف، ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠١.

(2) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים، שם، (עמ'١٥)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، (ص١٥).

(3) שם، (עמ'١٦)ـ نفس المرجع (ص١٦).

وإمعانا في تصوير حالة الفقر وزيادة معدلاته يعطى لنا القاص صورة واقعية لـ " قطي بيت هالحمى " ، تلك الأم التي ضربها الفقر هي وأبناءها الأربعة ، وكانت ضحية لالتهام الأمن للموارد الاجتماعية :

" وصل أبناؤها الأربعة إلى حجرة الاستقبال وهم متلفعون ببطاطين صوفية قديمة وممزقة . كانوا يرتعدون برداً وعطشون نوماً " [1] .

ويواصل القاص وصفه للمنزل الذي تعيش فيه تلك الأسرة والأثاث الذي يحتويه :

" كانت هناك ثلاجة قديمة ، وفارغة تقريبًا ، تقبع بجوارها منضدة طعام صغيرة ، فقدت إحدى أرجلها . . . وفي المطبخ كانت المغسلة عليها جبل من الصحون والأواني التي لا يمكن تنظيفها ، لأن منظف الأواني نفذ . . . وفي غرفة الأطفال ، كان الأبناء الأربعة ينامون على ثلاثة مخادع ويتغطون ببطانيتين فقط . . . أما في غرفة الأبوين ، فقد كانا ينامان أيضًا على مخدع واحد وجداه بالشارع في صيف العام الماضي " [2] .

وكان قطاع السياحة ، من أشهر القطاعات التي تأثرت بالانتفاضة الفلسطينية ، الأمر الذي زاد من حالة الركود في الاقتصاد الإسرائيلي :

" لقد ألغيت الكثير من رحلات الطيران القادمة إلى إسرائيل ، وقلقت شركات الطيران الغربية على سلامة عملاءها " [3] .

وفي حقيقة الأمر ، كان قطاع السياحة في إسرائيل من أهم القطاعات التي تأثرت بأحداث الانتفاضة ، حيث انخفض عدد السائحين بما يزيد عن ٥٠٪ ، وتم إغلاق أكثر من عشرين فندقًا وتسريح عدد لا بأس به من موظفي قطاع السياحة في إسرائيل ، واعتبر البنك الإسرائيلي في تقرير له ، أن حالة الركود الاقتصادي وصلت إلى حد غير مسبوق منذ عام ١٩٨٣ ، وأفاد التقرير نفسه أن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الإسرائيلية لمواجهة الانتفاضة تشير إلى زيادة كبيرة في معدل الأنفاق العام بحيث وصل إلى ما يزيد عن ٥٤٪ من الناتج القومي " [4] .

وهو أمر كان قد أكد عليه رئيس اتحاد أصحاب الفنادق الإسرائيلية ، بقوله : " إن السياحة الوافدة لإسرائيل في الأشهر القادمة ستكون صفرا ، وقتها سيكون من الصعب

(1) אורלי קסטל־בלום : חלקים אנושיים ، שם ، (עמ'17)ـ نفس المرجع (ص17) .
(2) נא לעיין : שם ، (עמ'١٩ـ١٨)ـ نفس المرجع (ص١٨ـ١٩) .
(3) שם ، (עמ'٢٩)ـ نفس المرجع (ص٢٩) .
(4) עיתון הארץ ، ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠١ـ صحيفة هآرتس٢٣/ ١٢/ ٢٠٠١ .

obeikandi.com

تقدير عدد الفنادق التي سيتم إغلاقها، وتقدير عدد العمال الذين سيتم إقالتهم، ولكن من الواضح أنه إذا لم يكن هناك حل سريع فإن عمليات تسريح العمالة ستشمل الآلاف "[1].

وهكذا، كان للانتفاضة الفلسطينية أثرها المباشر على السياحة بنوعيها الخارجية والداخلية وتراجع عدد الزائرين، حيث "انهارت السياحة كنتيجة طبيعية لعمليات المقاومة في العمق الإسرائيلي من حيث التفجيرات الاستشهادية. وحسب التقارير المعلنة، فإن أعداد السائحين انخفضت بنسبة تفوق ٦٠ في المائة عن الأعوام السابقة للانتفاضة. وعلى سبيل المثال، خسرت شركة العال الإسرائيلية للطيران مئات الملايين من الدولارات فقط من جراء الانتفاضة، وقد وصف المدير العام للجمعية الإسرائيلية لأصحاب الفنادق آفي روزنتال تأثير الانتفاضة بأنها "الأزمة الأكثر والأطول زمنا بين كل ما شهدناه، والأسوأ من ذلك أننا لا نرى لها نهاية في الأفق "[2].

وكان للوضع الاجتماعي والاقتصادي السيئ، الذي شهدته إسرائيل خلال سنوات الانتفاضة، وقعه الملموس على فرص العمل بإسرائيل، حيث عانى الكثيرون من قلة فرص العمل وازدادت معدلات البطالة، فها هي "تاساروا" تندب حظها وحظ أخويها اللذين جاءا من إثيوبيا إلى إسرائيل، وانضما إلى حزب العاطلين:

"الآن، ليس لديهما فرصة عمل "[3].

وتعتبر مشكلة البطالة من أهم المشاكل التي تسارع الحكومة الإسرائيلية بوضع الحلول الفورية لها، في إطار سياسة الإغراءات التي تتبعها والتي من شأنها أن تجذب جموع اليهود للهجرة إلى إسرائيل. وعلى هذا، فإن أزمة البطالة هي من أخطر الأزمات التي يواجهها مخطط السياسة الإسرائيلية، وتجعله يسعى للخروج منها بأقصى سرعة ممكنة حرصًا منه على تشجيع اليهود عند استقدامهم كمهاجرين جدد إلى إسرائيل، لا سيما وأن هذا المجتمع قائم ومعتمد بشكل أساسي منذ نشأته وإلى الآن على استقدام المهاجرين، ويروج دائما لقدرته على امتصاص هذه الهجرات وتوظيفها. "ورغم كل تلك البواعث لم تستطع الحكومة الإسرائيلية الحد من هذه المشكلة، أو حتى تجميدها، حيث أشارت التوقعات، آنذاك، إلى استمرار هذه الأزمة، فنسبة البطالة أخذت في اتجاهها التصاعدي إبان انتفاضة الأقصى

(1) עיתון מעריב، ١/ ٤/ ٢٠٠٢ـ صحيفة معاريف، ١/ ٤/ ٢٠٠٢.

(2) يوسف شلى: ثلاث سنوات على انتفاضة الأقصى: إسرائيل أقل أمنا.. أكثر خوفا، مجلة (العصر)، ٢٤ـ٩ـ٢٠٠٣.

(3) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים, שם, (עמ'١٨٠)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، (ص١٠٨).

لترتفع من ٨,٨٪ عام ٢٠٠٠ إلى ٩,٣٪ عام ٢٠٠١ ثم إلى ١٠,٥٪ عام ٢٠٠٢ كما تشير تقديرات صندوق النقد الدولي "[١].

كما تشير التقارير الاقتصادية الرسمية في إسرائيل إلى "ارتفاع عدد العاطلين في إسرائيل عام ٢٠٠١ إلى ٢٢٠ ألف عاطل بعد أن كان مخططا لهذا العدد أن يكون ٢١١ ألف عاطل، وذلك رغم تعهد الحكومة في أكثر من مناسبة أنها ستخلق عشرات الآلاف من الفرص. . . وقد بدأ هذا الانحدار في مؤشرات أداء الاقتصاد الإسرائيلي تحديدا منذ الربع الرابع من عام ٢٠٠٠، نتيجة للصدمات التي اجتاحت إسرائيل سواء من الداخل متمثلة في اندلاع انتفاضة الأقصى في سبتمبر ٢٠٠٠ (السبب الرئيسي للانحدار)، وما ترتب عليها بعد ذلك من اعتداءات عسكرية إسرائيلية على الأراضي الفلسطينية "[٢].

وهكذا، كان لانتفاضة الأقصى أثر كبير من الناحية الاجتماعية والاقتصادية على الآخر (الإسرائيلي) الذي غدا يجنى ثمار العنف والقسوة ضد الآخر (الفلسطيني)، فتأثر اجتماعيًا واقتصاديًا، فجاءت هذه الانتفاضة لتعصف بمقدرات المجتمع الإسرائيلي وتحمله إلى أزمة اقتصادية عميقة، وتضعه على أهبة الاستعداد والترقب والحذر من المصير المجهول.

ثالثًا: المحور السياسي:

تعرضت إسرائيل لعدة مواقف أدت لاختلالها الأمني منذ اندلاع انتفاضة الأقصى في سبتمبر ٢٠٠٠ وبشكل لم تتعرض له منذ قيامها عام ١٩٤٨، حيث تهدد أمن إسرائيل من الداخل، عكس كل الأوضاع التي شكلت ملامح الحروب الإسرائيلية ـ العربية في الماضي، والتي كانت تدخلها إسرائيل ضمن مبدأ أو استراتيجية الحدود الآمنة.

وقد استدعى هذا التهديد الداخلي للمجتمع الإسرائيلي ذاكرة الحروب التي خاضتها إسرائيل منذ قيامها، وتساءل الكثيرون عن جدوى الاتفاقيات، وخاصة أوسلو، ما لم تحقق الأمن المنشود لليهود، وأكد كثير من المحللين الإسرائيليين أن انتفاضة الأقصى أشد خطراً وفتكًا بالمجتمع الإسرائيلي من الحروب السابقة، لأن هذه الانتفاضة تدور بالداخل ومجهولة الزمان والمكان.

ويمكن القول، إن انتفاضة الأقصى مثلت اختباراً صعبًا للحكومة الإسرائيلية، التي

---

(1) أنظر: تأثيرات أداء اقتصاد إسرائيل على خياراتها السياسية والعسكرية http://www.ahram.org.eg/acpss

(2) تأثيرات أداء اقتصاد إسرائيل على خياراتها السياسية والعسكرية، مرجع سابق.

غدت المسئول الأول عن أمن المجتمع الإسرائيلي، لاسيما وقد أدت هذه الانتفاضة إلى استدعاء أجواء حرب ١٩٤٨، ومثلت منعطفًا خطراً في الحياة السياسية لإسرائيل، وفي اتخاذ الحكومة للقرارات المصيرية، وإدارتها للصراع العربي الإسرائيلي بكافة مستوياته.

وتؤكد المؤرخة والمحققة الإسرائيلية تانيا راينهارت في كتابها (أكاذيب عن السلام ـ حرب باراك وشارون ضد الفلسطينيين) على "أن إسرائيل لو توقفت عما اقترفته من تطهير عرقي في عام ١٩٤٨ لكان من الممكن التعايش مع ذلك، لكنها واصلت التطهير العرقي الذي تعاظم بعد التوقيع على أوسلو، وفي خضم الانتفاضة. لقد استغلت إسرائيل انتفاضة الأقصى لممارسة أكبر قدر من القمع ضد المدنيين الفلسطينيين من أجل إجبارهم على الفرار. ونظر القادة العسكريون إلى الحرب التي يخوضونها ضد الانتفاضة على أنها مكملة للحرب التي خاضتها إسرائيل عام ١٩٤٨، ونجحت في تشريد نصف الفلسطينيين من أرضهم، وقررت استكمال المهمة وطرد البقية خلال انتفاضة الأقصى"[(١)].

وقد أدت هذه الأجواء لردود فعل عنيفة من الحكومة الإسرائيلية (الممثلة لأغلبية توجهات الشعب الإسرائيلي) من خلال القيام بحملات عسكرية لا حصر لها على المناطق التابعة للسلطة الفلسطينية، مستخدمة مختلف الأسلحة والماكينات العسكرية من طائرات ودبابات ومجنزرات وبوارج بحيث اكتملت أوجه الآلة العسكرية برا وبحرا وجوا.

وسار هذا الأداء العسكري بالتوازي مع تزايد حجم الإحساس بالخطر الذي اجتاح الشوارع والميادين الإسرائيلية نتيجة للعمليات الاستشهادية الفلسطينية، التي هزت إسرائيل من الداخل بشكل عنيف لم تشهده من قبل، والتي أتت بدورها تعبيرا عن بلوغ صبر الشعب الفلسطيني مداه في انتظار الحلول السياسية.

"إن الظروف التي سادت قبل اندلاع انتفاضة الأقصى لم تدع أمام الفلسطينيين سبيلاً إلا محاولة استخدام العمل المسلح لوقف الاستيطان، لأنهم لم يخوضوا غمار انتفاضة الأقصى، إلا بعد أن تحرروا من الوهم الذي زرعته اتفاقيات أوسلو التي وقعت في العام ١٩٩٣، حيث اعتقدوا أن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة الذي بدأ في العام ١٩٦٧ أوشك على نهايته، وآمنت قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني بأن اتفاقيات أوسلو، ستؤدي إلى انسحاب إسرائيلي من المناطق المحتلة وإقامة دولة فلسطينية. لكن الأمور لم تسر على هذا المنوال. وصعق الفلسطينيون عندما اكتشفوا أن القيادة السياسية لمعسكر اليسار الإسرائيلي التي كانت تتولى مقاليد الأمور في إسرائيل قبيل وعند اندلاع انتفاضة

(1) أنظر: http://www.naamy.net/index.php

الأقصى، حولت روح أوسلو التصالحية إلى وسيلة جديدة أكثر إحكامًا لمواصلة الاحتلال "[1].

وهكذا، يرجع البعض حالة التدهور الأمني التي وصل إليها المجتمع الإسرائيلي إبان الانتفاضة إلى تصرفات الحكومة الإسرائيلية ومماطلتها في تنفيذ الاتفاقيات الموقعة مع الفلسطينيين، وتوسيع الاستيطان، والإفراط في استخدام القوة ضد الأطفال والنساء، وعدم الإذعان إلى النداءات الدولية.

ويعول بعض المحللين السياسيين في إسرائيل على الساسة الإسرائيليين في مسألة انطلاق شرارة انتفاضة الأقصى، حيث "تؤكد المؤرخة الإسرائيلية راينهارت على أن رئيس الوزراء الإسرائيلي ايهود براك الذي اندلعت انتفاضة الأقصى في عهده هو الذي يتولى الجزء الأساسي من المسؤولية عن اندلاع الانتفاضة لعدم جديته في التوصل لتسوية سياسية مع الشعب الفلسطيني، على الرغم من الضجيج الذي أثاره حول تحركاته السياسية. وتضيف راينهارت أنه بخلاف الانطباع الذي حاول رسمه حول نفسه، وساعدته في ذلك وسائل الإعلام الإسرائيلية المجندة، فإن براك لم يتطلع في قرارة نفسه إلى تحقيق مصالحة مع الفلسطينيين. فخلال مؤتمر كامب ديفيد الذي سبق اندلاع انتفاضة الأقصى، ماطل باراك ولم يكن جديًا في التوصل لتسوية سياسية "[2].

وربما كان هذا سببًا في سقوط باراك في الانتخابات الإسرائيلية التي جرت في فبراير ٢٠٠١ ونجاح أريئيل شارون رئيسًا للوزراء، وهو واحد من أكثر السياسيين في الشرق الأوسط تأثيراً وإثارة للجدل ونزوعًا إلى العدوان، حيث كانت انتفاضة الأقصى هي العامل الرئيس في إسقاط باراك. وقد مثلت هذه الانتفاضة مفاجأة حقيقية لمعظم اليهود الذين أقنعهم السياسيون الإسرائيليون ووسائل الإعلام الإسرائيلية التي صورت مقترحات باراك على أنها "شديدة السخاء". وأعرب زعماء إسرائيليون كثيرون عن شعورهم "بالصدمة" للانفجار "الفجائي" للعنف في الأراضي المحتلة.

وفي إطار هذا الجدل السياسي الذي شهده المجتمع الإسرائيلي، علق الأديب الإسرائيلي عاموس عوز، وأحد أنصار حركة "السلام الآن"، على صفحات جريدة الجارديان، عقب الانتخابات، قائلا أن "خسارة اليسار الإسرائيلي للانتخابات تقع بأمانة على عاتق الانتفاضة. إن الفلسطينيين يطلبون العدل، والعدل يتطلب صراعًا أبديًا في حين أن السلام يتطلب حلولاً وسطى "[3].

---

(1) نفس المرجع

(2) أنظر: http://www.naamy.net/index.php

(3) עיתון ידיעות אחרונות ١٥-٢-٢٠٠١- صحيفة يديعوت احرونوت، ١٥/ ٢/ ٢٠٠١.

وقد انعكس هذا الوضع السياسي الشائك في هذه الرواية، محل الدراسة، وبدا الارتباك السياسي واضحًا في أحداثها:

"كان السياسيون في حالة ارتباك تجاه هذا التصعيد المتزايد"[١].

فلم تجدي مناقشات الحكومة في توقيف الانتفاضة:

"استمرت المناقشات داخل الحكومة حول العمليات والمصابين، ولكنها لم تسفر عن شيء"[٢].

وتلقى "بلوم" على لسان القاص، بمسئولية هذا التصعيد على السياسة الإسرائيلية التي وقفت عاجزة أمام السيارات المفخخة، ووضعت المجتمع الإسرائيلي على حافة الانهيار الأمني:

"كانت السياسة الإسرائيلية سببًا في حالة التدهور الحاد التي وصل إليها المواطنون، وأدت إلى مزيد من العمليات والسيارات المفخخة"[٣].

وقد عبرت "بلوم" عن طبيعة رفض المجتمع الإسرائيلي لسياسة الحكومة من خلال نسج شخصية "رؤفين تاقوع" رئيس الدولة في الرواية. هذه الشخصية لا هم لها سوى زيارة جرحى الانتفاضة ودفن ضحاياها، وكأن دور رئيس دولة إسرائيل هو زيارة الجرحى في المستشفيات والمشاركة في الجنازات فقط:

"كان يهرول من جنازة إلى أخرى، ثم يتوجه إلى أحد المستشفيات لزيارة جرحى الانتفاضة... لقد حضر تاقوع خمس جنازات في أسبوع واحد"[٤].

وهى حقيقة يؤكد عليها سخاروف وهاريئيل في كتابهما (الحرب السابعة) حيث يرسمان "صورة قاتمة للأوضاع السياسية والاجتماعية في الدولة في ذروة تنفيذ العمليات الاستشهادية في الأعوام ٢٠٠١ و٢٠٠٢ و ٢٠٠٣. فقد تحولت الدولة إلى دولة جنازات، حيث أقيمت الجنازات للقتلى في كل مكان ومنطقة من مناطق الدولة"[٥].

وفي سخرية من هذا الوضع وتعبيراً عن حالة الجدل السياسي التي عاشها المجتمع

---

(1) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים, שם، (עמ'١٣)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، مرجع سابق (ص١٣).

(2) שם، (עמ'١٧)ـ نفس المرجع (ص١٧).

(3) שם، (עמ'٣١)ـ نفس المرجع (ص٣١).

(4) שם، (עמ'٧٩)ـنفس المرجع (ص٧٩).

(5) أنظر: http://www.naamy.net/index.php

الإسرائيلي إبان أحداث الانتفاضة يأتي القاص في الرواية بحوار ساخن بين اثنين في إحدى الجنازات حول عربة الرئيس الإسرائيلي المصفحة ضد الطوب، وهل هي مصفحة أيضًا ضد القذائف أم؟ وينتهى بأن تصرخ أم الطفل الذي يذهب معها الرئيس لدفن ابنها قائلة:

"كفى، ألا تخجلون؟ دعونا ندفن الابن"[1].

ويشير هذا الحوار إلى طبيعة الجدل السياسي والقرارات التي تتخذها الحكومة الإسرائيلية دفاعًا عن سياستها أمام الجمهور في إطار لعبة اليمين واليسار للسيطرة على الحكم، خاصة وأن بعض المحللين الإسرائيليين يرون أن سياسة باراك أثناء انتفاضة الأقصى، كانت تتسم بتصرفات هوجائية غير مسئولة، يكمن هدفها في الحفاظ على سياسة حكومته والتظاهر بضبط النفس، وهو ما دفع الكاتبة إلى تصوير عربة الرئيس وكأنها مصفحة ضد الطوب، في إشارة إلى ثورة الحجارة عام ١٩٨٧ وانتفاضة الشعب الفلسطيني ضد الآخر (الإسرائيلي) الذي اتخذ الصراع معه منعطفاً خطيراً فيما يتعلق بالهوية والأرض وسياسة المراوغة في تنفيذ الاتفاقيات.

كما تأتى السخرية من عربة الرئيس المصفحة ضد الطوب لتطرح سؤالاً عن مدى قدرة هذه العربة في الصمود أمام تفجير الاستشهاديين لأنفسهم؟ وهو سؤال يحيلنا إلى سؤال آخر حول مدى قدرة الحكومة الإسرائيلية في الصمود أمام شعب يضحى بكثير من أبناءه من أجل تحرير أرضه المغتصبة؟

وفي تصورنا أن هذه السخرية لم تأت من قبل الأديبة في الرواية، لكي تعكس صمود الشعب الفلسطيني، بقدر ما جاءت كتعبير عن رفض السياسة الإسرائيلية المتبعة في التعامل مع الفلسطينيين سواء على مستوى الاتفاقيات أو أسلوب قمع الانتفاضة، لأن الأديبة حاولت فقط أن تظهر حالة الدمار التي خلفتها انتفاضة الأقصى في المجتمع الإسرائيلي دون الإشارة إلى أن هذه العمليات تأتى في إطار الحق المشروع للدفاع عن الأرض، وكرد فعل تجاه الممارسات الإسرائيلية في المناطق المحتلة. أضف إلى ذلك، أن هذه الأديبة لم تتطرق إلى تداعيات الحصار والخنق الاقتصادي التي اتبعتها الحكومة الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني، لا سيما وأن مفردات التعامل مع انتفاضة الأقصى في الرواية كانت تشير إلى إدانة شديدة لهذه الانتفاضة ووصفها بالإرهاب، فعلى سبيل المثال، استخدمت الأديبة، في التعبير عن الانتفاضة، كلمات عبرية مثل (מחבל – פיגוע – פיגוע התאבדות – אויבים

(1) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים, שם, (עמ'٨٢)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، (ص٨٢).

– התוקפנות הפלסטינית) وهى كلمات تعنى (مخرب ـ حادث تخريبي ـ حادث انتحاري ـ أعداء ـ عدوان فلسطيني).

وإمعانا في حالة التخبط السياسي التي وقعت فيها الحكومة الإسرائيلية إزاء تعاملها مع الانتفاضة الفلسطينية، ينتقد الشارع الإسرائيلي مماطلة الحكومة في تنفيذ الاتفاقيات، في إشارة إلى اتفاقية أوسلو وغيرها، وهو الأمر الذي وضع الحكومة في مأزق الانتفاضة وطريقة التعامل معها:

"لا يوجد خيار آخر. فلنعي أننا سنضطر للجلوس معهم في أية مرحلة، لا مع الصينيين ولا مع السويديين، بل معهم"[(١)].

وفي تعبير عن الوضع السياسي الذي أنهك الحكومة الإسرائيلية إبان انتفاضة الأقصى، تأتى لنا الأديبة بحديث بين "تاقوع" رئيس الدولة وسكرتيرته حول الوضع الأمني، وقد بدا متعبًا ومنهكًا للغاية. إنه يتحدث في أمور حساسة وهو في حاجة إلى النوم والراحة:

"أنهى تاقوع حديثه، فقد كان متعبًا وفي حاجة للنوم: آهههههههه"[(٢)].

كما أشارت الرواية إلى حالة الارتباك في التعامل سياسيًا مع انتفاضة الأقصى، حيث تسخر "بلوم" من خطاب تاقوع إلى الشعب حيث يقول:

"أيها الشعب، أبناء إسرائيل، المهاجرون الجدد والقدامى، النازحون الذين عادوا... تمر علينا أيام صعبة؛ سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الاقتصادي، أو على مستوى الطبيعة... فليس أمامنا سوى أن نتكيف مع هذا الوضع. أما بالنسبة للوضع الأمني، فأنني أؤكد لكم أن لدينا جيش قوى، وحكومة جيدة، وعلينا أن نكون متحدين وأقوياء"[(٣)].

وتسخر "بلوم" من سياسة ضبط النفس التي تتبعها الحكومة الإسرائيلية:

"اجتمع المطبخ السياسي هذا الأسبوع ثلاث مرات لبحث تزايد حدة الانتفاضة الشعبية للفلسطينيين داخل المناطق وداخل إسرائيل، وقرر الاستمرار في سياسة ضبط النفس وعدم الانجرار لحرب شاملة"[(٤)].

وتتساءل "بلوم"، على لسان "ايريس فنتورا"، عن جدوى السياسات المحبطة التي لا

---

(1) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים שם، (עמ'٨٤)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، مرجع سابق (ص٨٤).
(2) שם، (עמ'٩٦)ـ نفس المرجع (ص٦٩).
(3) שם، (עמ'١٠٤)ـ نفس المرجع (ص١٠٤).
(4) שם، (עמ'١١٣)ـ نفس المرجع (ص١١٣).

تفيد والتي ضربت الدولة في الأعماق، حيث تتجاذب أطراف الحديث مع سائق التاكسي الذي تستقله:

"ما هذا الوضع السياسي الخطير؟ وما جدوى السياسة المحبطة التي بدأت إسرائيل في اتخاذها. فإذا سألت أحداً، هل هذا الأمر يفيد أم لا؟، فبالتأكيد أنه لا يعرف الإجابة"[1].

وتشير "بلوم" هنا إلى حالة الارتباك السياسي وتحوير الاتفاقيات الموقعة، وسياسة الحكومات الإسرائيلية تجاه التعامل مع الفلسطينيين، وتتهم السياسة الإسرائيلية بالتسبب في فوضى غير طبيعية، حيث لا يمكن التنبؤ بالمستقبل، مستقبل دولة عاشت وما زالت قابعة في مستنقع الصراع الذي لا يفيد ولا ينتهي:

"يعيش المجتمع الإسرائيلي الآن في غابة غير طبيعية، بسبب الوضع السياسي المعقد مع العرب. فلا يمكن التنبؤ بما سيحدث غداً. ولا يمكن التنبؤ بالوضع الذي ستؤل إليه الدولة فيما بعد"[2].

ويرجع بعض المفكرين الإسرائيليين هذا الارتباك السياسي إلى التصرفات غير المسئولة لبعض السياسيين الإسرائيليين والتي من شأنها أن تزيد الموقف سوءاً مع الفلسطينيين، ففي كتابهما (الحرب السابعة) يشير سخاروف وهارئيل، إلى "أن اريئيل شارون، الذي كان زعيماً للمعارضة اليمينية في إسرائيل، يتحمل مسئولية كبيرة عن اندلاع الانتفاضة لإصراره على دخول المسجد الأقصى، وتجاهله بشكل تظاهري الحساسية المطلقة التي ينظر بها المسلمون والفلسطينيون على وجه الخصوص إلى دخول اليهود إلى باحة الحرم، لا سيما عندما يدور الحديث عن شارون، وهو أحد الذين شاركوا في حروب الاستنزاف الدامية في الخمسينيات ضد الفلسطينيين في قطاع غزة، فهو عدو الشعب الفلسطيني. لقد رفض شارون التحذيرات التي قدمها قادة الأجهزة الأمنية والشرطة من النتائج الوخيمة للزيارة"[3].

ويرى المؤلفان أن موقف شارون هذا يجعله مسئولاً عن شلال الدماء الذي خلفته هذه الزيارة. ويوجه المؤلفان انتقادات لاذعة لرئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت ايهود باراك الذي خضع لشارون ووافق على إتمام الزيارة.

وهكذا، عكست الأديبة الإسرائيلية "كاستل بلوم" في روايتها، محل الدراسة،

---

(1) שם، (עמ'١٣٧)ـ نفس المرجع (ص١٣٧).

(2) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים שם، (עמ'١٩١)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، مرجع سابق (ص١٩١).

(3) أنظر: http://www.naamy.net/index.php

التخبطات السياسية التي وقعت فيها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة في إدارة الصراع مع الفلسطينيين، بتبنيها سياسات العنف والقسوة والحصار والتدمير ضد الفلسطينيين، ناهيك عن التصرفات غير المسئولة لبعض المسئولين الإسرائيليين الذين لا يدركون عواقبها.

وهو أمر تشدد عليه المؤرخة الإسرائيلية "راينهارت" بقولها: " حرصت إسرائيل دومًا على استدراج الفلسطينيين للمواجهات من أجل تحقيق مكاسب على الأرض من خلالها. فإسرائيل هي التي كانت دائما تبادر إلى إفشال تفاهمات التهدئة والهدنة مع الفصائل الفلسطينية عبر المبادرة بشن عمليات عسكرية من أجل إفشال التهدئة ووضع حد للهدنة. أضف إلى ذلك، أن الفلسطينيين لم يمنحوا البتة أية فرصة لتحويل نضالهم إلى مقاومة مدنية، وهو ما كانوا راغبين به مرات كثيرة"[1].

وفي شهادة مهمة، تؤكد "راينهارت" على أن الفلسطينيين "لم يمنحوا البتة أية فرصة لتحويل نضالهم إلى مقاومة مدنية، وهو ما كانوا راغبين به مرات كثيرة. وتنوه راينهارت إلى ما بات معروفًا وهو حقيقة أن الجيش الإسرائيلي أعد مخططات للقضاء على السلطة الفلسطينية وعلى مؤسسات المجتمع الفلسطيني قبل اندلاع انتفاضة الأقصى في سبتمبر من العام ٢٠٠٠"[2].

وربما كان اندلاع هذه الانتفاضة بمثابة التنبيه على أن السياسة الإسرائيلية من شأنها أن تجر المجتمع إلى مشكلات معقدة، وتضعه على المحك، وتقذف به في معضلات قد لا تتحملها طبيعة المجتمع الإسرائيلي؛ الذي أخذ يتساءل عن جدوى الصراع المستمر وعن دوامة العنف التي لا تنتهي دون أن يستطيع أحد أن يوقفها، وهو ما جعل بعض المحللين الإسرائيليين يدفع بالصهيونية على مسرح الأحداث وهم يتساءلون، هل وضعت الأيديولوجية الصهيونية في اعتبارها ندية الآخر (الفلسطيني)، وهى تدفع بجموع اليهود في اتجاه أرض فلسطين؟ وهل خدعت تلك الجموع المهاجرة بشعار أرض الآباء والإرث والراحة؟ بادعاء الحق الديني لليهود في أرض فلسطين تارة، والحق التاريخي تارة أخرى.

رابعًا: أثر الانتفاضة الفلسطينية في الموقف من الصهيونية:

كانت حرب ١٩٤٨ نقطة فاصلة في تاريخ الحركة الصهيونية، حيث بدأ عدد من المفكرين الإسرائيليين في تحليل مفردات الحركة الصهيونية ونظرياتها، ومدى توافقها مع الواقع الذي تعيشه الدولة، وتوصلوا إلى أنها نظرية لم تتوافق أفكارها مع أفعالها، ووصف الناقد الإسرائيلي يوسف أورن حرب ١٩٤٨ بأنها دليل على فشل الصهيونية، حيث

(1) أنظر: http://www.naamy.net/index.php مرجع سابق.
(2) أنظر: نفس المرجع

يقول: "إن حرب ١٩٤٨ التي تشير في التاريخ إلى البرهان الذي يحاول الإقناع على نجاح الصهيونية، تعرض في الأدب الذي يصف هذه الحرب كفشل أخلاقي لا مثيل له. لقد تحولت الصهيونية على في نظر أدباء ١٩٤٨ إلى اسم مضطهد، وإلى نظرية معادية تستمد قوتها من الكلام والبلاغة فقط. نظرية لم تتوافق أفكارها مع أفعالها"[1].

واستمر هذا الجدل حول الصهيونية بعد كل حرب تخوضها إسرائيل، حتى أن حرب يونيو ١٩٦٧ لم تعد تمثل في الأدب العبري محور فخر ومباهاة بالقوة العسكرية الإسرائيلية، بل عبر الكثير من الأدباء الإسرائيليين عن الحلقة المفرغة من الحروب التي تزيد من فقد الأعزاء والأمهات الثكلى، وربما تصاعدت رائحة البارود والسأم من تلك الحروب المتوالية في عدد كبير من الأعمال الأدبية الإسرائيلية، التي تغلغلت في أعماق النفس اليهودية، وكشفت لنا عن مرارة نفسية عميقة، وشعور بالخطر الدائم لدى الآخر (الإسرائيلي) حتى في أوقات الانتصار. وكانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ بمثابة إضافة جديدة إلى كأس افتقاد الإحساس بالأمان، وارتفاع معدل الإحساس بالخطر الدائم، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين من الأدباء الإسرائيليين يضعون علامات استفهام عديدة حول الصهيونية وتمسك الدولة بها، وتدنى قدرتها على مواجهة التحديات التي تواجهها دولة إسرائيل، ووصل الأمر إلى مناداة البعض، أمثال أ. ب. يهوشواع، بالانفصال عنها، وتشييعها إلى مثواها الأخير.

وقد لحق بهم في نفس التوجه أدباء جيل الثمانينيات أمثال "مئير شاليف" وغيره من الأدباء الذين طرحوا الأسئلة المريرة حول مدى صدق الصهيونية في أطروحاتها حول الحق الديني والتاريخي لليهود في أرض فلسطين، وهى الأطروحات التي تسببت في كل هذه المحن وكل هذه الحروب، التي وقعت فيها الدولة، وعانى منه المجتمع الإسرائيلي.

وهو الأمر الذي جعل المفكرين الإسرائيليين يعدون صياغة جديدة لواقع هذه الأيديولوجية، ويتساءلون عن نجاحاتها وإخفاقاتها، ليكشفوا عن ضعف الصهيونية، وعن تدنى قدرتها على مواجهة التحديات التي تواجهها دولة إسرائيل، وعن إخفاقها في تحقيق بعض أهدافها، حيث فشلت في تجميع الشتات اليهودي داخل إسرائيل، وفي توفير الأمن للجموع اليهودية المهاجرة إلى فلسطين، وفي تحقيق (بوتقة الانصهار) داخل المجتمع الإسرائيلي، وهو ما كشف عن رغبة هؤلاء المفكرين والمجتمع الإسرائيلي في عمل مراجعة شاملة ودقيقة لصورة العلاقة التي تجمع بين الدولة والأيديولوجية الصهيونية. واتهم هؤلاء

(1) נא לעיין: יוסף אורן: הציונות והצבריות ברומן הישראלי، הוצאת יחד، ישראל، ١٩٩٠ـ يوسف أورن: "الصهيونية والصبارية في الرواية الإسرائيلية)، دار نشر ياحد، إسرائيل، ١٩٩٠.

المفكرون الإسرائيليون ومعهم بعض الأدباء، في فترة متأخرة، الصهيونية بالفشل، وبأنها السبب في كل المحن التي وقعت فيها دولة إسرائيل.

والمتتبع للمتغيرات التي طرأت على تقييم الصهيونية، وكيفية التعامل مع فرضياتها النظرية من قبل المفكرين الإسرائيليين، ومدى تلاؤمها مع الواقع المعاش، سوف يلاحظ أن هذا التقييم تأثر بالاهتزازات التي تعرضت لها أهداف الصهيونية ووسائل تحقيقها. ومن هنا تمت المراجعة لمدى قوة الصهيونية في تحقيق أهدافها، وارتبط هذا التقييم بالأحداث التي أشارت إلى نجاحات الدولة وفشلها أكثر من أي شيء آخر. وكانت للحروب المتوالية التي خاضتها إسرائيل، وبخاصة حرب أكتوبر ١٩٧٣، وانتفاضة الحجارة ١٩٨٧، وانتفاضة الأقصى ٢٠٠٠، أثر كبير على المستوى النفسي في حدوث تغيرات فكرية في تقييم الأيديولوجية الصهيونية. وبدت الشكوكية الشاملة في التعامل مع مدى صدق الصهيونية في نهجها، وفي احتمالات تحقيق مشروعاتها (الإقليمية، والديموجرافية، وغيرها)، ووصل الأمر إلى القول بأنه لم تعد هناك حاجة إلى الصهيونية بعد أن أقيمت الدولة، وبات الجو مهيأ لفكرة الانفصال عن الصهيونية والبحث عن بديل جديد يتوافق مع الواقع المعاش بمتغيراته، وهام في الأفق التنكر لكل مبدأ صهيوني يسعى إلى ترسيخ مفاهيم ونظريات عفا عليها الزمن، ولا تتلاءم مع الوضع الراهن لدولة إسرائيل. وبدا أن هناك شبه اتفاق على أن الصهيونية قد آن أوان تشييعها إلى مثواها الأخير، خصوصًا في فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت حالة الفوران الشديدة للانتقادات الموجهة ضد الحركة الصهيونية.

والجدير بالذكر، أن هذا التقييم كان يبدأ مع كل حرب تخوضها الدولة، وليدة الصهيونية، منذ حرب ١٩٤٨ وحتى حرب لبنان الأخيرة ٢٠٠٦. وكانت انتفاضة الأقصى جولة مهمة من جولات وضع الصهيونية على المحك، لاسيما وقد تحطمت نظرية الأمن التي تشدقت بها الصهيونية، على مذبح الانتفاضة؛ التي أججت مشاعر الحسرة والندم على المجيء إلى تلك البقعة من الأرض، لدى بعض الإسرائيليين.

ويبدو أن "كاستل بلوم" انضمت إلى صفوف المنادين بعمل مراجعة شاملة ودقيقة للأيديولوجية الصهيونية، تلك المناداة التي بدأت منذ ثمانينيات القرن الماضي، ووضعت الصهيونية في قفص الاتهام، حيث احتوت روايتها على إشارات أدمجتها في صحيفة اتهام تلك الأيديولوجية، التي زرعت الوهم في نفوس هؤلاء اليهود، وأشارت في سخرية إلى الرواد الذين أخذوا على عاتقهم مسألة تشويه الآخر (الفلسطيني) ونفيه، حتى يسهل التعامل معه، ولكنهم سرعان ما وجدوه نداً قويًا على درجة عالية من الاستيعاب والاستعداد لأية محاولات ترمى إلى نفيه أو حتى تركيعه.

فتشير "بلوم" إلى انهيار حلم الرواد الصهيونيين بتساقط الأشجار التي غرست على

أيديهم، في إشارة إلى انهيار دولة إسرائيل، طالما أنها تتعامل مع الآخر (الفلسطيني) بنوع من التهميش والنفي:

"لم تكن البنايات في إسرائيل مهيأة لاستيعاب مثل تلك الكميات الكبيرة من المطر والثلوج، لذا تحطمت أسقف المنازل على رؤوس ساكنيها... ووقعت الأشجار التي زرعها الرواد في بداية الاستيطان"[1].

وفي إشارة إلى شخصية "الصبار[2]" التي صنعها الرواد الصهيونيون لتتناسب مع مرحلة الاستيطان على أرض فلسطين، ولرغبة منهم في طمس معالم اليهودي (الجيتوى) الذي عاش في الشتات شخصية طفيلية هامشية، ورفعوا شعار (آخر يهودي وأول عبري)، تؤكد "بلوم" على انهيار نموذج آخر من نماذج الحركة الصهيونية:

"لم يعد هناك صبارين تقريبًا، فكل الصبارين هربوا"[3].

وهكذا تسخر "بلوم" من تلك الشخصية اليهودية الصبارية التي راهن عليها الرواد الصهيونيون في تحقيق الحلم الصهيوني، ولكنها هربت من ساحة المعركة كما تقول بلوم في روايتها، لاسيما وقد أصبح المجتمع الإسرائيلي ساحة للقتال، القتال مع النفس، ومع الآخر، ومع الفكر الصهيوني، ومع حقيقة وواقع هذا العالم الذي يعيش فيه هؤلاء الإسرائيليون، وكأنهم يبحثون عن "عالم نقي"، هذا العالم الذي بحثت عنه شخصيات "بلوم" في الرواية وكررت "بلوم" هاتين الكلمتين (عالم نقي)[4] على مدار صفحات

---

(1) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים, שם, (עמ'١١). أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، مرجع سابق (ص١١).

(2) الصبار: أخذ ذلك المصطلح يتردد في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة واستخدم للمرة الأولى في مدرسة "هرتسليا" الثانوية في تل أبيب، وهى مدرسة كانت تضم بين تلاميذها اليهود شبانًا من مواليد فلسطين إلى جانب الذين هاجروا مع آبائهم، والذين كانوا غالبًا ما يتفوقون على أولئك المولودين في فلسطين بسبب قدومهم من حضارة أكثر تقدمًا. وفي محاولة لتعويض الشعور بالنقص كان اليهود من مواليد فلسطين، يلجئون إلى الإمساك بثمرات التين الشوكي وتقشيرها بأيديهم، ويدخلون في مسابقات التقشير هذه مع أبناء المهاجرين، وكانت تنتهي عادة بأن يكسب أبناء اليهود من مواليد فلسطين هذا التحدي، ويتمكنون من نزع القشرة الشائكة ليحصلوا على الثمرة الحلوة. ومن هنا التصقت كلمة "التين الشوكي" (الصبار) بهذه الفئة من اليهود مواليد فلسطين، ثم انتشرت التسمية لتغطى ما يسمى بجيل "الصباريم" الذي أصبح يقصد به أولئك اليهود الذين ولدوا في فلسطين على الرغم من تخلفهم الحضاري، فإنهم أكثر قدرة على تحمل المشاق.

(3) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים, שם, (עמ'٢٥)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، مرجع سابق (ص٢٥).

(4) שם, (עמ'٤٣)ـ نفس المرجع (ص٤٣).

كثيرة من الرواية، لتعبر عن سأم المجتمع الإسرائيلي من هذا العالم وتلك الأرض التي لم تدر لبنًا ولا عسلاً.

وتسخر "بلوم" من الوضع الذي آل إليه هذا المجتمع بفعل انتفاضة الأقصى، ساخرة من الصهيونية الدينية التي ساهمت في مجيء اليهود إلى هذه الأرض، وهدأت من روع اليهود المتدينين الذين رفضوا قيام دولة لليهود، وأكدت أن قيام هذه الدولة هو مقدمة لمجيء المسيح المخلص:

"تلك العمليات الفلسطينية، وذلك الشتاء الأوربي، يبشرون بمجيء المسيح، ولكن على شعب إسرائيل أن يتوحد أمام العدو وأمام أضرار حالة الجو"[1].

وتعليقًا على الوضع الأمني الذي عاشه الإسرائيليون إبان انتفاضة الأقصى، ترى "بلوم" أن المهاجرين الجدد دفعوا ثمن المجيء إلى هنا. والمعروف أن الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين، كانت أحد الركائز التي قامت عليها الحركة الصهيونية، فجندت كل إمكانيتها لتشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين، ومازالت الهجرة تمثل حدثًا حيويًا ومنعشًا لدولة إسرائيل، في حين أن الهجرة العكسية تمثل خطراً شديداً على هذه الدولة:

"... لا يمثل هذا شيئًا، سوى أن أي فرد يعيش هنا، لابد وأن يدفع ثمن الهجرة الجديدة إلى إسرائيل"[2].

وقد دفعت الانتفاضة الفلسطينية بعض الإسرائيليين إلى الندم على المجيء إلى هنا:

"مازالت تعيش حالة من الحداد على زوجها الذي مات في إسرائيل، وتتهم نفسها بأنها السبب في المجيء إلى هنا"[3].

واستمراراً في هدم كل القيم الصهيونية، تعبر "كاستل بلوم" على تشرذم المجتمع الإسرائيلي بكل فئاته، في إشارة إلى تأثير مشكلات الاندماج داخل المجتمع الإسرائيلي التي راهنت الصهيونية على صهره في بوتقة واحدة، ورفعت شعار "بوتقة الانصهار"، حيث تشير "تاسارو" المهاجرة الإثيوبية الجديدة إلى صعوبة التكيف داخل المجتمع الإسرائيلي، في ظل هذه الوضع الأمني المتردي:

---

(1) אורלי קסטל-בלום: חלקים אנושיים, שם, (עמ' ٤٥) – أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، مرجع سابق (ص٤٥).

(2) שם، (עמ' ٥٩) ـنفس المرجع (ص٥٩).

(3) שם، (עמ' ١٩١) ـنفس المرجع (ص١٩١).

"بلغ عدد أخوتها وأخواتها سبعة، لم يستطع أحد منهم الاندماج في المجتمع الإسرائيلي"[١].

ورأى البعض أن الحل هو النزوح عن إسرائيل:

"عندما تعود تاساروا سيخبرها بالنزوح إلى كندا"[٢].

وتعد مسألة الهجرة العكسية من الأمور التي تؤثر بصورة ملحوظة على الواقع الديموغرافي في إسرائيل، حيث شجعت الانتفاضة، وبشكل ملحوظ، على الهجرة العكسية من إسرائيل، فطبقًا للبيانات الرسمية الصادرة من المؤسسات الحكومية، "فقد نزح ما يقرب من ٦٥٠ ألف إسرائيلي عن إسرائيل عام ٢٠٠٣"[٣].

كما تبين "أن حوالي خمسين ألف مهاجر روسي لم يستطعوا التكيف مع المجتمع الإسرائيلي بسبب الأوضاع الأمنية المتردية، فنزحوا إلى بلادهم الأصلية. "وتشير بعض التقارير الرسمية إلى أن نسبة الراغبين في النزوح إلى وطنهم الأصلي من بين المهاجرين الروس في تزايد مستمر بفعل تلك الأوضاع الأمنية المتردية"[٤].

وهكذا، دفعت الانتفاضة ببعض اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل إلى العودة مرة أخرى إلى البلاد التي جاءوا منها، حيث فوجئت قطاعات كبيرة من الجمهور الإسرائيلي، وخاصة المهاجرين الجدد الذين لا يبدون استعدادًا لتحمل مخاطر البقاء في الدولة، بتدهور مستوى الأمن، بشكل جعل الكثير من رهانات المهاجرين الجدد تتبخر، لا سيما وأن الدوافع الأيديولوجية للبقاء في الدولة وتحمل المصاعب التي ينطوي عليها العيش هنا، قد تقلصت بشكل كبير.

وقد أدى ذلك إلى انخفاض نسبة المهاجرين إلى الدولة. ففي عام ٢٠٠٢ طرأ انخفاض بنسبة ٢٣٪ على عدد المهاجرين اليهود الذين وصلوا إلى إسرائيل من شتى أنحاء العالم. ويؤكد سالي مريدور رئيس الوكالة اليهودية (المعنية بتهجير اليهود من أرجاء العالم إلى إسرائيل)، أن مشاهد أشلاء الإسرائيليين وهي تتطاير في أعقاب تنفيذ عمليات التفجير التي يقوم بها الفلسطينيون، والتي تبث عبر الفضائيات، تجعل اليهود المنتشرون في بقاع الأرض يفكرون ألف مرة قبل التوجه لإسرائيل[٥].

---

(1) שם، (עמ'١٧٩) ـنفس المرجع (ص١٧٩).

(2) שם، (עמ'٢٢٠)ـنفس المرجع (ص٢٢٠).

(3) נא לעיין: עיתון מעריב، 2003/ 7/ 22ـ صحيفة معاريف، 2003/ 7/ 22.

(4) נא לעיין: עיתון מעריב، 2004/ 1/ 9ـ صحيفة معاريف، 2004/ 1/ 9.

(5) נא לעיין: עיתון מעריב، 2003/ 1/ 13ـ صحيفة معاريف، 2003/ 1/ 13.

وطبقًا لتقرير نشرته صحيفة "معاريف" الإسرائيلية فإن معدلات الهجرة الروسية إلى إسرائيل قد انخفضت بصورة ملحوظة خلال سنوات الانتفاضة بمقدار ٧٥٪، "ففي عام ١٩٩٩ هاجر إلى إسرائيل ٦٧ ألف يهودي، وفي عام ٢٠٠٠ تقلص عدد المهاجرين إلى ٥٢ ألف يهودي إلى إسرائيل، وفي عام ٢٠٠١ وصل عدد المهاجرين إلى ٣٥,٣ ألف يهودي، وفي عام ٢٠٠٢ كان عدد المهاجرين إلى إسرائيل ١٨,٥ ألف يهودي، وفي عام ٢٠٠٣ تقلص عدد المهاجرين بفعل الانتفاضة، بصورة ملحوظة، ووصل إلى ١٢,٥ ألف يهودي فقط"[١].

ومع ازدياد العمليات الاستشهادية للفلسطينيين وتقلص عدد اليهود المهاجرين، تساءل الكثيرون عن الحل والخروج من هذا المأزق، وكانت الصهيونية هي المتهم الأول في هذا الوضع الذي آل إليه الآخر (الإسرائيلي) الذي أتخمته الصهيونية بالقيم والمبادئ والراحة والإرث على أرض فلسطين، ولكنه تساءل عن وجهة الصراع ونهايته، ولعن كل من الصهيونية التي أتت به إلى هذه البقعة من الأرض، وتلك الدولة التي ما زالت ترضع من لبن الصهيونية وتعيش على العنف والحروب والصراع، وهو الأمر الذي جعل "أدير برجسون"، يصف إسرائيل في الرواية، بأنها مقبرة كبيرة يقبع فيها الكثير من المستوطنات التي ستتحول قريبًا إلى قبور لساكنيها:

"لم يكن في مقدوره أن يرى الموت كل يوم من حوله. ولكنه رأى أن إسرائيل مقبرة تترامى على أطرافها الكثير من المستوطنات، مازال يعيش عليها أناس، ولكن من المحتمل أن يلقوا حتفهم قريبًا. فكل يوم قتلى جدد، وجنازات وعمليات، وحوادث إطلاق نار، وصواريخ، وأحزمة ناسفة، ويبقى السؤال أين الحل"[٢].

وربما يذكرنا هذا الوصف –وصف إسرائيل بالمقبرة– برواية (رواية روسية) عام ١٩٨٩ للأديب الإسرائيلي "مئير شاليف"، التي وصف فيها دولته بأنها مقبرة للرواد الصهيونيين والمستوطنين، وصورها كبستان جميل زرعه الجد ثم أعطاه لحفيده، الذي سرعان ما حوله إلى مقبرة تهافت عليها الكثير من الإسرائيليين لحجز مكان بها، في إشارة إلى انهيار القيم الصهيونية وإلى خديعة الصهيونية لجموع اليهود المهاجرين إلى هذا المكان، واصفًا ادعاء الصهيونية بالحق الديني والتاريخي لليهود في أرض فلسطين، بأنه أسطورة زائفة، روج لها الرواد الصهيونيون، ودفعوا اليهود للاعتقاد فيها، ولكنهم اكتشفوا حقيقة تلك الأرض

(1) נא לעיין: עיתון מעריב، 2004/ 1/ 9ـ صحيفة معاريف، 2004/ 1/ 9.

(2) אורלי קסטל־בלום: חלקים אנושיים، שם، (עמ'٢١٩)ـ أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، مرجع سابق (ص٢١٩).

التي دائمًا ما تلعب لعبة الصراع مع أصحابها، وحذر "شاليف" من المضي على درب الصهيونية التي لم تشيد دولة، بل شيدت مقبرة يتجمع فيها اليهود من كل صوب، دون أن يدركوا أنهم على موعد مع الموت.

ويمكن القول، إن الضغوط النفسية والاقتصادية والاجتماعية التي تتولد عن السلوك السياسي والعسكري لمتخذ القرار في إسرائيل، مهما بلغ حجمها وشكلها وطبيعتها، لا ترقى للمستوى الذي يجبر متخذ القرار في إسرائيل على تغيير قائمة أولوياته المعدة سلفا والموجودة منذ نشأة دولة إسرائيل. فقد ارتبط تأسيس دولة إسرائيل بما بدأه هرتسل منذ عام ١٨٩٧ في المؤتمر الصهيوني الأول لإنشاء وطن قومي لليهود، متبنيًا نظريات تقوم على أساطير أرض إسرائيل التاريخية والدينية، وأرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وأسطورة شعب الله المختار وتحريم اختلاط الدم اليهودي بدماء الشعوب الأخرى (النجس). وهى أسس ونظريات أدت إلى اعتقاد كل الشرائح الثقافية المكونة للمجتمع الإسرائيلي بأنهم أصحاب الحق في امتلاك الأراضي المقدسة (فلسطين التاريخية والدينية). وهو أمر يجعل الصراع مع الآخر ممتد ومتواصل ما دام هناك امتداد وتواصل لادعاءات غير حقيقية قائمة على نظريات صهيونية بالحق الديني والتاريخي لليهود في فلسطين، وصفها بعض المفكرين الإسرائيليين بالأساطير الزائفة.

وربما نلحظ هذه النظرة التشاؤمية أيضًا على مدار تلك الرواية، التي أعادت فيها "كاستل بلوم" وصف دولتها بالمقبرة، وزادت على ذلك بوصفها، على لسان أحد أبطال الرواية، بأنها (دولة قذرة):

"لقد حكت لي عن أمور كثيرة، ما الذي يحدث هنا. إنها دولة قذرة، إنني أقول لك، دولة قذرة، في ظل كل هذه العمليات الفلسطينية"[1].

(1) אורלי קסטל-בלום: חלקים אנושיים, שם, (עמ'١٠٣)- أورلى كاستل بلوم: أشلاء، رواية، مرجع سابق (ص١٠٣).

الخاتمة

بعثت انتفاضة الأقصى برسائلها المباشرة الموجهة من الشعب الفلسطيني لإسرائيل ولسائر شعوب الأرض، وأكدت أن هناك شعبًا مازال يقبع تحت الاحتلال العسكري المباشر، هذا الشعب من شأنه أن يلحق أضرارًا بالغة بالمحتل، مهما وصلت حدود قوته، وأكدت أيضًا أن الصراع مع الآخر لا يعنى نفيه أو تشويهه أو تهميشه، وعبرت هذه الانتفاضة عن غضب شعب تجاهل الجميع حقوقه أو تناساها، ولكنه كان مؤثرًا وما زال. ومن خلال ما سبق، نستطيع أن نستخلص النقاط التالية:

(١) جاءت رواية (أشلاء) للأديبة الإسرائيلية "كاستل بلوم" لتعبر عن التداعيات الحقيقية لانتفاضة الأقصى على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعكست تخبطات المجتمع الإسرائيلي تجاه هذه الظاهرة التي أوقعت الآخر (الإسرائيلي) في دوامة من التساؤلات الأخلاقية حول ماهية الصراع وأسبابه.

(٢) تعد هذه الرواية تأريخًا واقعيًا لحالة المجتمع الإسرائيلي إبان انتفاضة الأقصى، ويمكن اعتبارها مرجعًا تاريخيًا يمكن من خلاله وصف المجتمع الإسرائيلي إبان فترة الانتفاضة.

(٣) دفعت انتفاضة الأقصى ببطلان الادعاءات الصهيونية بتحقيق الأمن لجموع اليهود المهاجرة إلى أرض فلسطين، وأعادت من جديد، مسألة وضع الصهيونية في قفص الاتهام واتهامها من قبل المجتمع الإسرائيلي بأنها السبب في كل المحن التي وقعت فيها دولة إسرائيل، كما أنها ضربت إحدى مقومات الأيديولوجية الصهيونية، وهى الهجرة، في مقتل، وتسببت في تزايد أعداد النازحين عن إسرائيل، وعجلت بالحكم على الصهيونية التي جاءت بهؤلاء المهاجرين إلى تلك البقعة من الأرض التي وصفت في الرواية بأنها مقبرة لليهود.

(٤) كشفت بعض المفردات العبرية التي استخدمتها الكاتبة في الرواية للتعبير عن الانتفاضة-(مخرب- حادث تخريبي- أعداء- عدوان فلسطيني)- عن نظرة المجتمع الإسرائيلي للانتفاضة الفلسطينية ووضعها في إطار العمليات الإرهابية، في خلط واضح ومغلوط بين شرعية المقاومة والأعمال الإرهابية.

(٥) جاءت بعض الأسماء لأبطال هذه الرواية كرمز للواقع الذي عاشه المجتمع الإسرائيلي إبان الانتفاضة، مثل קטי בית הלחמי وكلمة לחם تعنى خبز، في

إشارة إلى حالة الفقر التي تعيشها أسرة قطي بيت هالحمى، ومثل תקוע رئيس الدولة، وهى كلمة عبرية تعنى (منغرز)، أو (مولج) في إشارة إلى هرولة رئيس الدولة بين جنازات ضحايا الانتفاضة، وفي مسميات الأبناءאושר – חירות – ועוז وهى كلمات عبرية تعنى (سعادة، وحرية، وملاذ) في إشارة إلى حاجة المجتمع الإسرائيلي إلى مثل هذه الأشياء.

(٦) (أجزاء بشرية) هي الترجمة الحرفية لعنوان الرواية، ولكننا ارتآينا ترجمتها إلى (أشلاء) لتساير أحداث الرواية، وذلك على الرغم من أن الأديبة ذكرت في حديث معها أنها حاولت الكشف عن الفارق الدقيق بين الأجزاء البشرية الحية لدى بعض البشر، وضامرة لدى البعض الآخر.

(٧) كان هناك اهتمام ملحوظ من قبل الأديبة في إطلاق أسماء الأنبياء اليهود ـحبقوق، ملاخى، هوشع، عاموس، يونا، عوبديا، ناحومـ على بعض الشوارع في إسرائيل، رغبة منها في تأصيل الوجود اليهودي على هذه الأرض، محل الصراع، في مواجهة انتفاضة الأقصى.

(٨) امتلأت صفحات الرواية بضحايا الانتفاضة من القتلى والمصابين الإسرائيليين، في تحيز واضح من قبل الأديبة لصالح الآخر (الإسرائيلي) في الوقت الذي تجاهلت فيه ضحايا القصف الإسرائيلي للمناطق المحتلة.

(٩) كشفت هذه الرواية عن مرارة نفسية عميقة لدى الإسرائيليين، بعد حقبة طويلة من الحروب والصراعات، وأظهرت أن الانتفاضة الفلسطينية كانت أشد فتكًا وإيلاما من الحروب؛ لوجهتها ناحية المجتمع الإسرائيلي من الداخل.

اتهم بعض النقاد الإسرائيليين هذه الرواية بالانهزامية والتنصل من المسئولية، لأنها كشفت عن تصدع المجتمع الإسرائيلي وانهياره في مواجهة الانتفاضة.